إبراهيم الكوني



3.4.2016

معزوفة الأوتار المزمومة

دار سؤال
DAR SOUAL

إبراهيم الكوني

معزوفة الأوتار المزمومة



معزوفة
الأوتار المزمومة

الطبعة الأولى 2016

دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
dar_souaal@outlook.com

ISBN: 978-614-8020-04-9

القسم الأوّل

معزوفة الأوتار المزمومة

تجلّيات شاهد العيان

1

يُقاس عمر الجسد بالأعوام، ويُقاس عمر الروح بالآلام: بتوالي الأعوام يتناقص عمر الجسد، وبتعدّد كمّ الآلام يتضاعف عمر الروح.

2

سلطان الغيوب أعدل القضاة بدليل أنه يُسلّم صولجان السلطان في كل مرّة لأحد فصائل القبيلة الإنسانية، لا على سبيل الاحتكار بالطبع، ولكن على سبيل الاسترجاع.

3

ما يجب أن يفرّقنا ليس لون الجسد، ولكن لون الروح.

4

من روح الميثولوجيا وُلد اللاهوت.

من روح الأيديولوجيا وُلد الطاغوت.

5

لا خطيئة في الميثولوجيا.

لا حقيقة في الأيديولوجيا.

6

في أعدائنا يسكن أصدقاؤنا، لأن أعداءنا يتصيّدون خطايانا.

في أصدقائنا يسكن أعداؤنا، لأن أصدقاءنا يتستّرون على خطايانا.

7

الرائحة ـ خطيئة الجسد.

الخطيئة ـ رائحة الروح.

8

عندما نتكلّم ننصّب الناس على أنفسنا قضاةً.

وعندما نسمع ننصّب أنفسناعلى الناس قُضاةً.

9

ليس مصادفةً أن تسنّ لغة عبقرية كالعربية الناموس الذي يزاوج بين الإبداع والأخلاق في كلمة (أدب)، لأن لا وجود لإبداع في غياب أخلاق، كما لا وجود لأخلاقٍ في غياب إبداع.

10

ليس مصادفةً أيضاً أن تسنّ هذه اللغة الناموس الآخر الذي يزاوج بين الدَّيْن والدِّيْن، لأن لا التزام بدِينٍ بلا التزامٍ بدَيْنٍ، ولا التزامٍ بدَيْنٍ بلا التزامٍ بدِينٍ.

11

نتباهى بالذريّة على الرغم من أننا نستحي من الكيفية التي أنجبنا بها الذريّة.

12

الطُّغاة جنسان اثنان، طُغاةٌ أدنياء وطغاةٌ أدهياء: الأدنياء يقتلون مريدي الأحلام ليلطّخوا أيديهم بالدماء، والأدهياء يقتلون أحلام المريدين ليجنّبوا أنفسهم سفك الدماء!

13

هبة المجّان دسيسة للإيقاع بالروح في ملحمة العراك مع الدّنَس.

14

الدنيا هي العدوّ الوحيد الذي لا نستطيع أن نهزمه بالإقبال عليه، ولكن بالإدبار عنه.

15

أشياء كثيرة نستطيع أن نحتاجها، ولكن أكثر الأشياء التي نحتاجها هي الأشياء التي نستطيع أن نستغني عنها.

16

أن تكون أيُّها الإنسان محبّاً، أفضل من أن تكون عبقرياً، لأنه إذا كانت العبقرية برهان نفع، فإن المحبّة برهان هُدَى.

17

الصحراء بحر رمال ـ ولكنه بحرٌ بمياهٍ صفراء.

البحر صحراء مياهٍ ـ ولكنها صحراءٌ برمالٍ زرقاء.

18

لا ماء في الصحراء، ولا ماء في البحر، بدليل أننا نهلك ظمأً في كليهما.

19

الحرية هي القاسم المشترك الأعظم لقطبَي الطبيعة الخالدين: البحر والصحراء.

20

أن نكون عبداً لهوى، أسوأ من أن نكون عبداً لإنسان.

21

نحقّق الغلبة ضدّ من كرِهْنا بالإقبال، ونحقّق الغلبة ضدّ من أحببنا بالإدبار.

22

الصمت رطانة الحرية.

23

زيّ المرأة جسدٌ اصطناعي، لحجب جسدٍ طبيعي، لتسويق جسدٍ محتجب.

24

العمر ـ شهادة بإجازةٍ محدودة الصلاحيّة.

25

الثياب ـ جسدٌ اصطناعي يحجب جسداً طبيعياً، لظروفٍ طبيعية، قبل أن يخضع بحكم العادة لنواميسَ جماليّةٍ وأخرى أخلاقية.

26

الفرح ـ لقيةٌ نفيسةٌ عابرةٌ مغتصبةٌ من تنّينٍ مجهول.

27

الصيف ـ شهادة حرية محدّدة الصلاحية.

28

اختزال مبدأ وجودي كالحرية في حرف السياسة جريمة الأيديولوجيا.

29

الحكيم هو من يعمل بالوصية قبل أن يُقرأ في حضرته مزمور الوصية.

30

مسلك الحكيم ترجمة لروح الوصية مهما اغترب في الوصية حرف الوصية.

31

حضورٌ في الرؤية ـ خواءٌ في الرؤيا.

32

العزلة ـ تجربة حرية نضحّي فيها بالعالم لنجني في المقابل حضوراً في ملكوت إنسان الأبدية المجهول الذي بحثنا عنه طويلاً ولم يخطر لنا على بال أنه يسكننا.

33

الفضول في عدسة المخلوق هو الشهادة على خواء روح المخلوق.

34

الوسوسة ـ ذخيرة الضمير المريض.

اليقظة ـ ذخيرة الضمير الحيّ.

السكينة ـ ذخيرة الضمير النقيّ.

35

السعادة غنيمة الضمير النقيّ.

36

الموت شبحٌ مسكونٌ بمثنّى: أحدهما تنّينٌ مخيف، وثانيهما حوريّةٌ تغوي. فحذارِ ثمّ حذارِ من خوفٍ يدفعنا للفرار من التنّين، وحذارِ ثمّ حذارِ من استسلامٍ يدفعنا لتلبية نداء الحورية.

37

وجود الرواية رهين حضور العلاقة. ولهذا السبب لا وجود للرواية في حضور الحرية.

38

المجد للموت الذي يجيرنا من الموت.

39

روح الجسد ـ القُوْت.
قوْت الروح ـ الحُلُم.

40

الحرية وطن الحقيقة بدليل أن الحقيقة تغترب ما أن نشرع في احتكارها.

41

الموت هو البعبع الذي لا يجب أن يستهوينا فننساق إليه طوعاً، ولا يجب أن يفزعنا فنفرّ منه خوفاً.

42

اللحن ـ أنينُ إنسانٍ أعجزه البيان.

43

المعزوفة ـ شكوى روحٍ أعجزها اللسان.

44

الموسيقى ـ خطاب الغيوب.

45

الموسيقى ـ بيان الغيوب في نصٍّ يرفض الاعتراف بالعبارة لغةً.

46

الموسيقى ـ أحجية المجهول الساعية بالصوت لتحديد المعنى.

47

الموسيقى ـ رطانةٌ تبحث عن ترجمان.

48

الطبيعة ـ نصُّ اللّه في بُعْده الحرفيّ.

الروح ـ نصّ اللّه في بُعْده الرمزيّ.

49

الجسد ـ نصّ الطبيعة المحفوظ في لوح الوجود.

الروح ـ نصّ الغيوب المحفوظ في لوح الخلود.

50

الوجع ـ نبوءة الحسّ.

الحزن ـ نبوءة الروح.

51

الصمت ـ قدس أقداس يمحو وجود البهتان، ليخاطبنا فيه الحميم الذي يسكننا، ويحاسبنا فيه الحكيم الذي نسكنه.

52

الماء ـ حريّة الجسد.

الحريّة ـ ماء الروح.

53

في البحر ماء، ولكنه ليس بماء.

في الصحراء، خلاء ولكنه ليس بخلاء.

54

إذا لم تعترض طريق أحدهم، فلابدّ أن يعترض أحدهم طريقك.

55

صاحب الجهالة كصاحب الحَسَد ليس في حاجة إلى قصاص، لأن جهل الجاهل كحسد الحاسد في حدّ ذاته قصاص.

56

عجبي من وطنٍ لا يستحي فيه السليل الدّخيل من أن يبخل بالهويّة على السليل الأصيل.

57

الحكيم ـ شهيدٌ قيد الحياة، مصلوبٌ على شجرة أصلها في الديمومة، وفرعها في الديمومة.

58

كم من ميّتٍ هو حيٌّ، وكم من حيٍّ هو ميّت!

59

الحَدَس ذاكرة الضمير، وذاكرة الضمير صوت اللّه.

60

الحكمة بغياب الحُكمِ حُكْمٌ.

الحُكم بغياب الحكمة طغيانٌ.

61

الحكيمُ بالحِكمة حاكمٌ.

والحاكمُ بالحُكمِ محكومٌ.

62

الحسّ ـ ذاكرة الرؤية.

الحَدَس ـ ذاكرة الرؤيا.

63

الضمير ـ ذاكرة الحدس.

الحَدَسُ ـ ذاكرةُ الضمير.

64

في اتّساع المكان ضياع اللسان.

65

منطق الرؤية ـ العبارة.

منطق الرؤيا ـ الإشارة.

66

كلّما اتّسعت الرؤية، ضاقت الرؤيا.

67

في حضور الرؤية ـ غياب الرؤيا.

68

الرؤية ـ عدسة الحسّ.

الرؤيا ـ عدسة الحَدَس.

69

الرؤية في صفقة الحضور، حرفٌ.

الرؤيا في صفقة الحضور، روحٌ.

70

معبود الرؤية ـ واقعٌ.

معبود الرؤيا ـ غيوبٌ.

71

ترجمان الرؤية ـ المشهد.

ترجمان الرؤيا ـ التجلّي.

72

وَجْدُ الرؤية ـ غنيمةٌ.

غنيمة الرؤيا ـ وجدٌ.

73

رؤية الرؤيا ـ إلهام.

رؤيا الرؤية ـ أضغاث أحلام.

74

الرؤيا للرؤيةِ ذخيرةٌ، ولكن الأخيرة للرؤيا ليست ذخيرة.

75

الحِكمةُ حُكمٌ، ولكنّ الحُكمَ ليس حكمةً.

76

التجربة الروائية مغامرة غيبيّة، الواقع فيها حرفٌ ينفي، والبُعْد المفقود فيها روحٌ تُحيي.

77

الذكريات ـ تواقيع الزمان في رقعة الذاكرة.

78

رطانة البحر ـ خطابُ الأمم الفانية.

79

الجبّانة ـ عمران الأموات.

والعمران ـ جبّانة الأحياء.

80

من يبدأ بمعاملة السلاح كلقية، ينتهي بمعاملة الحرب كدمية.

81

من ارتضى أن يكون جلّاداً بامتلاك السلاح ليس له إلّا أن يقبل أن يكون ضحيّةً بنشوب الحرب.

82

الافتتان بالحرف مشروعٌ لاحتراف القتل.

83

لا سبيل لإسعاد إنسان يعاني من غياب اللّه.

84

من أخلص للّه في أداء واجب، أدّى اللّه عنه الواجب.

85

الذريّة ـ كتب الجسد.

الكتب ـ ذريّة الروح.

86

الأسطورة ـ ترجمان أمّنا الطبيعة، ولسان حال الإنسان في التعبير عن هويّته الغيبيّة.

87

أولئك الذين يستهويهم اللهو لا يعملون، لأن عملهم اللهو.

وأولئك الذين يستهويهم العمل لا يلهون، لأن لهوَهم العمل.

88

نغفر لأنفسنا النجاح، ولا نغفر لأنفسنا الفشل.

يغفر لنا الأغيار الفشل، ولا يغفرون لنا النجاح.

89

قيمتنا ليست في ما اغتنمنا من حُطام، ولكن في ما اختزلنا من آلام.

90

نستميت في طلب الحقيقة، لا لنمتلك الحقيقة، ولكن لنستوعب درس الحقيقة، لأن امتلاك الحقيقة احتكارٌ للحقيقة، وفي احتكار الحقيقة إماتة الحقيقة.

تجسيدٌ لأنفاس النزع الأخير

1

اصفرار أوراق الأشجار في الخريف ـ باقةُ وردٍ على ضريح الصيف!

2

الثلجُ ـ كفنُ الخريف، وشيبُ الشتاء.

3

الصيف ـ حضورٌ في برزخ العمر الذي لا يُقبل حتى يُدبر.

4

الشتاء ـ استجارة المارد بقمقم البيات!

5

الربيع ـ يقظة عنقاء مغرب من رماد غربتها!

6

إصفرار أوراق الأشجار ـ تجسيدٌ لأنفاس النزع الأخير!

7

اصفرار أوراق الأشجار ـ باقةُ وردٍ على ضريح!

اخضرار أوراق الأشجار ـ إكليلُ تتويج!

8

اصفرار أوراق الأشجار ـ طقسُ تأبين!

اخضرار أوراق الأشجار ـ حفلُ تتويج!

9

الربيعُ في صفقة الفصول، ضيفٌ. والصيفُ فيه طيفٌ،
ولكن الخريف ـ عَدُوْسُ سُرَى!

10

كم هو حثيثٌ زحف الاصفرار في أوراق أشجار الخريف!

11

كيف ستتعشّق الأشجارُ حميمَها الشتاء، إذا لم تتعرَّ الأشجارُ من ثوب عرسها في الخريف؟

12

لِوَرَمِ الطبيعة لونٌ أصفر!

13

للخريف، في إجهاض أجنّة الأشجار، ساعدٌ أيمن هو: الريح!

14

يهرع الريح لنجدة خلّه الخريف، كي يلبّي نداء سيّده الشتاء!

15

كلّما تأخّر سقوط أوراق الأشجار في الخريف، جُنّ جنونُ الريح!

16

إذا كان الريحُ في كفّ الخريف ساعداً أيمن، فهو في كفّ الشتاء خادمٌ أمين!

17

في استحضار الخريف لمعينه الريح ـ تصفية الخريف لحساباتٍ له مع الصيف!

18

لا يتعفّف الريح أن يعمل لحساب حميمه الخريف حفّاراً للقبور!

ولسيّده الشتاء ـ راعياً للغيوم!

ولمريده الربيع ـ مهمازاً للخروج من قمقم البيات!

ولمعشوقه الصيف ـ مِسْعَراً لتأجيج موقد النار!

19

الريح ـ كاهنٌ في حَرَم الفصول.

20

الريح ـ سادنُ الطبيعة المخوّل بممارسة طقس الفصل بين الفصول.

21

يروقُ الريحَ أن يلعب دور الوسيط لفضّ النزاع بين الفصول.

22

في مراسم التّسليم والاستلام بين الفصول ـ يستنكر الريح لعب دور شاهد العيان!

23

الريح وحده سليل أبديّة ـ لأنه الوحيد القادر على مشاهدة ملهاتنا من وراء حجاب!

24

إذا كان الشتاء في ملحمة الطبيعة جلّاد الفصول ـ فإنّ الربيع ـ حلمُ يقظة يرفرف بجناحين!

والصيفَ ـ محفلٌ منسوجٌ بوميض الضوء!

والخريفَ ـ رؤيا شعرية ممهورة بختم القربان!

25

إذا كان الشتاءُ جلّادَ الفصول ـ فإنّ الخريف هو قربانها!

26

في الخريف يتوّج قوسُ قزح الفضاء الأعلى بأفقٍ مخضّبٍ بألوان الطبيعة السّفلى!

27

الخريف ـ شِعْرٌ في جسدِ الطبيعة،

ولكنّه، في روح الفصولِ، ورمٌ!

28

بالخريف تروي الطبيعة خرافة حَزَنٍ في خَرَف الفصول!

29

مسوحُ الحداد، بناموس الطبيعة، لونها أصفر!

30

هيمنةُ الثلج ـ اكتمالُ النسيج في كفن الطبيعة!

31

بحروفٍ مشفوعةٍ بنزيف الخريف، تسطّر الطبيعةُ، على قرطاس الفصول، خطابَ الوداع!

أوتارٌ أخرى

1 ـ البداية والنهاية

بدايةُ كلّ أمرٍ قصاصٌ مهما تبدّى خلاصاً، ونهايةُ كلّ أمرٍ خلاصٌ مهما تبدّى قصاصاً.

2 ـ الحُكم

حُكمُ الربّ عدلٌ حتى لو تبدّى ظلماً، وحُكم الخلْق ظلمٌ حتّى لو تبدّى عدلاً.

3 ـ الحقيقة

عبثاً نحاول الفوز بالحقيقة في النظام، لأن النظام ترسيمة، والترسيمة حدٌّ، والحدّ وجودٌ، والوجود لغةٌ، واللغة بيان، ولا حضور للحقيقة في البيان، لأن هويّة الحقيقة في الحرية، لا في بيانٍ يعتنق ناموس الحرف.

4 ـ الباطن

الخلاصُ المُنتظَر من خارجٍ اسمه: ثورة. والثورة التي تأتي من باطنٍ اسمها: خلاص. ولا يخيب ظنّنا بالثورات إلّا بسبب انتظارنا للمعجزات.

5 ـ الأحلام

نحن صنيعة أحلامنا، ولكنّا أيضاً ضحايا أحلامنا.

6 ـ اغتراب الفحوى

الحلمُ الذي تحوّل معبوداً تغترب فيه الفحوى.

7 ـ المجد

الضلالُ أن نفتّش عن مجدٍ لا يعترف ناموسه بوجود الحبّ.

8 ـ عَنْعَنَة

عن أندريه موروا، عن ألبير كامو، عن إدغارد آلان بو، قال: «للسعادة أربعة أركان، أوّلها: الحياة في الطبيعة. ثانيها: أن تكون محبوباً. ثالثها: التخلّي عن النوايا الأنانية. رابعها: الإبداع»!

التعليق: حياة الطبيعة فردوسٌ حقّاً، ولكنها رهينة التضحية بالمجتمع. والمجازفة الحقيقية أن تكون محبوباً من أناسٍ يدينون بدين مجتمعٍ يناصب الخارج عنه العداء. أمّا التخلّي عن النوايا الأنانية فيتطلّب التحلّي بحسن النية إزاء دسائس مجتمع يناصب الخوارج صنوف العداء. وهو قصاصٌ مجّاني. وطبيعي أن تكون هذه البطولات شرطاً لإنجاز ما أسماه المحفل بـ«الإبداع». وهو ما تعني ترجمته بوصيّة مبتسرة هي: «عِش دنياك شاهداً!»، أو بعبارة أكثر صرامة: «عِشْ ناسكاً!».

9 ـ فتنة المعنى

أجراسُ القافية ـ فتنةُ المعنى.

10 ـ الثورات

تَخيبُ ظنونُنا بالثورات ليقيننا بأن من يتنبّأ بالثورات هم من يقوم بالثورات، ومن يقوم بالثورات هم من يجني ثمار الثورات، في حين يعلّمنا الواقع أن من يتنبّأ بالثورات هم الحالمون؛ ومن يقوم بالثورات هم من لايملك ما يفقد؛ ومن يجني ثمار الثورات هم الأشباح التي يلفظها المجهول!

11 ـ العدالة

الثورات غير معنيّة بما قامت من أجله. ولهذا تغدو العدالة أول ضحيّة في ناموس أيّ ثورة.

12 ـ العهد

دِينُ أيّ ثورة ـ التنصّلُ من عهدٍ مبرم مع الربّ.

13 ـ ورمٌ مُميت

السلطةُ ـ ورمُ الثورة الخبيث.

14 ـ ثمن الحكم

«فليقتُلني إذا كان قتلي سيمكّنه من أن يحكم!»

بهذه العبارة أجابت أمّ نيرون مَن أخبَرها بنيّة نيرون في قتلها.

15 ـ مشيئة البُعْد المفقود

الثورة داهية محكومة بمشيئة البُعْد المفقود، لا بناموس الوجود. ولهذا صارت منذ الأزل حميمة مفاجآت.

16 ـ الأخبار

أولُ حرفٍ في أبجديّة الحرّية ـ الزهدُ في تعاطي الأخبار.

17 ـ الألم

إذا لم نحقّق حلماً فهذا يعني أننا لم نتألّم بما يكفي لكي نستحقّه.

18 ـ المعرفة

كلُّ معرفةٍ مشكوكٌ في حقيقتها ما لم تكن مشفوعةً بمعرفة اللّه.

19 ـ الشجاع

الشجاعُ ليس من ينتصر. الشجاعُ من يغتفر.

20 ـ البليّة

نحن بالأخلاق، كما بالأدب، للبليّة في امتنان.

21 ـ الإيماء

الحقيقة إذا كانت غياباً في اللغة، فإنها حضورٌ في الإيماء. والوصيّة إذا كانت خطاباً مغيّباً في اللغة، فإنها كالحقيقة، حضورٌ في الإيماء. واليقظة أول شرطٍ لسماع صوت اللّه في الإيماء.

22 ـ السلطان

مَن شاءت الأقدار أن تسخَر منه نصّبته على الناس سلطاناً.

23 ـ الموهبة والعبقرية

الموهبةُ مرضٌ، والعبقريّةُ عدوّ!

24 ـ السعادة

العافيةُ ـ سعادةُ الجسد.

السعادةُ ـ عافيةُ الروح.

25 ـ الجَمَال

الجَمَالُ شبحٌ هشٌّ، الجمالُ طيفٌ عابر:

الأجَلُ الممنوح للزهرة هو الشهادة على قُصر عمر الجَمَال.

وهشاشةُ الوردة شهادةٌ أخرى على هشاشة الجَمَال.

26 ـ القَتْل

القتلُ حميمُ الحرف، والفَريسيّون في السيرة مع المسيح برهانٌ مبين.

27 ـ الوجود

الوجودُ حرفٌ ـ الحرّيةُ فيه روح.

28 ـ عبادة الأصنام

عبادة الحرف تجديفٌ أرذل من عبادة الأصنام؛ لأن عبادة الأصنام جهل، والجهل فطرة، والفطرة طبيعة، والطبيعة للربّ خليفةٌ في الأرض.

29 ـ فخّ إبليس

يرد في إحدى طبعات النفّري تعريفٌ للحرف يقول: «الحرفُ فخرُ إبليس»، ويرد في طبعة أخرى وصفٌ آخر يقول: «الحرفُ فجُّ إبليس». فهل نخطئ إذا حاولنا التوفيق بين الاحتمالين بتعديلٍ يقول: «الحرفُ فخُّ إبليس»؟

30 ـ الحكمة

حكمةُ الشباب ـ الذرّية.

ذرّيةُ الشيخوخة ـ الحكمة.

31 ـ الطبيعة

الطبيعةُ ـ جنّيّةٌ لا تسكن، وعينٌ لا تغفو.

32 ـ الجهل

المعرفةُ شَرَكٌ، والجهلُ حريّة.

33 ـ المعرفة

كيف لا تصير المعرفةُ شَرَكَاً، إذا كانت بالأصل شِرْكاً؟

34 ـ في مديح الموت

بأيٍّ حقٍّ نرى في الموت عدوّاً إذا كان الموت هو ما يُجيرنا من المرض، ومن الشيخوخة، ومن ألم الوجود، بل ويجيرنا من كابوسٍ اسمه انتظار الموت، بل ويُجيرنا حتّى من الموت، فلا يكتفي بكلّ هذا، ولكنّه يأبَى إلّا أن يحقّق لنا معجزة فيُهدينا بالمجّان الحريّة في حدودها القصوى؟!

متون الماء والموت

1

الماءُ ـ كلٌّ جانبٍ فيك عينٌ!

الماءُ ـ كلٌّ واجهةٍ فيك وجهٌ!

2

من مقلة الماء تقرأ السماء سيرة أرض.

من عمق الماء تعاند الأرض لفكّ طلسمان سماء.

3

الماءُ وحده مريدُ اغتراب؛ لأنه لا يهنأ في أرض، ولا يستقرّ في سماء.

4

الماءُ مرآةُ سماءٍ لأرضٍ تريد أن ترى فيها وجهها.

5

الماءُ ـ طرحةُ سماء، طريحةُ أرض.

6

الماءُ كلّه حريّة؛ لأنه لا يتبدّد في وطنٍ أسفل إلّا ليستعيد حضورَه في وطنٍ أعلى، ولا يغترب في وطنٍ أعلى إلّا ليستعيد جسدَه في وطنٍ أسفل.

7

التبدّدُ والتبدّي ـ لهو الماء للتدليلِ على حميميّة العلاقة بين الحياة والموت.

8

الماءُ ـ حُجّةُ بعثٍ، وهو البيّنة التي تنفي بيانَ الموت.

9

الماءُ، في جدل الحياة والموت، وسيط:

بالتبدّي الماءُ نصيرُ حياةٍ واستخفافٌ بالموت.

بالتبدّد ـ الماءُ حميمُ موتٍ ونصيرُ حياة.

10

الماءُ في كفّ الخلود وثيقة إثبات.

11

الماءُ، على الموت، شاهدٌ وحيد.

12

كلُّ قطرةِ غيثٍ شهادةٌ على ميلاد العمر الذي زال.

13

إذا كان الماء بالاستتار حريّة، فإنّ الماء بالاستظهار شَرَكٌ.

14

لم يعوّل الموتُ على شيء في حقيقته كقمقمٍ مستغلق كما عوّل على غياب شاهد العيان.

15

الموتُ بعبعٌ جبان، والدليل في طلبه لمن اجتنبه، واجتنابه لمن طلبه.

16

الصيتُ رأسُ مال الموت، لأن الموت لم يراهن على شيء كما راهن على غياب شاهد العيان!

17

عدمُ حضورِ الموت في حضرة شاهد العيان، دليلٌ آخر على جبن الموت.

18

سرُّ قوّةِ الموت في قدرته على حجب المجهول: نخافه كما لا نخاف شيئاً برغم أنه البعبع الذي لا نلتقيه وجهاً لوجه أبداً.

19

ما ضرّنا لو تسلّط الموت تسلّط الطاغية إذا كان لا يمارس هذه العادة إلّا مشفوعةً بانسحابنا؟

20

للموت فضيلةٌ لا تُجارَى: الحريّة التي يهبها هي الحريّة الوحيدة التي لا يأتيها الباطل لا من أمامٍ ولا من خلفٍ.

21

كلُّ حُكمٍ على الموت حكمٌ غيابيّ.

22

هل تموت الروح؟

تموتُ الروحُ في حال أُصيبت بالصدأ، والمفارقة أن الذهب الذي لا يعرف الصدأ هو المعدن الوحيد القادر على إصابة الروح بالصّدأ!

القسم الثاني

الفردوس السويسري

طبيعة حياد وطبيعة انحياز

تبدو طبيعة الألب باردةً، صارمةً، بل معاديةً، وطاردةً.

وكم تودّدت إلى هذه الطبيعة كي ترتضيني ضيفاً من أضيافها، وكم سخّرتُ من فنون تجاربي في ترويض الجليد أزمان الإقامة في روسيا وفي بولونيا كي تتنازل هذه الطبيعة المكابرة عن استكبارها فتقبلني مُريداً في رحاب محفلها. ولكن عبثاً!

فهي طبيعة لا تعترف بالعواطف مثل أهلها، وترفض الروح الحميمية التي اعتادها أمثالي في فراديس جنوبنا، فأتساءل: أين شيم الحياد التي اعتادت كل طبيعة أن تتحلّى بها في العلاقة مع رموز وجودها؟

منذ سنوات اشتكى لي الفقيد الطيّب صالح من غرابة أطوارها بعد زياراتٍ قام بها إلى منتجعات «لوكرباد» للعلاج الطبيعي في أعالي الألب السويسري حتّى أنّه لم يجد حرجاً في أن يتعجّب كيف أستطيع أن أطيق الحياة في رحاب هذا الربع الكئيب!

والواقع أن الطيّب صالح لم يُخطئ، لأن تجربتي في روسيا أو بولونيا مع مملكة الثلوج لم تخذلني كما خذلتني في علاقتي مع الألب، وفي حواري الموجع الذي استمرّ معها طويلاً في سبيل إيجاد اللغة المشتركة. كنت أستدرجها بقلبٍ ينزف، لأن طبيعة الجنوب التي تسكنني لم تتوقّف عن النحيب طوال تجربة هذا الجدل. إنه صوت فردوسي الضائع. صوت فردوسي الصحراوي الضائع لا مجازاً وحسب، ولكن حرفاً أيضاً. فالفردوس مفهوم في اللغة رديف للبستان. والبستان هو ما أضاعته الصحراء الكبرى منذ عشرة آلاف عام. وعلّ المفارقة أن تضيّع الصحراء فراديس البستان ثمّ تبقى مع ذلك في قلب المريد فردوساً. تبقى فردوساً لأنها لم تفقد في المغامرة تاج الفردوس. لم تفقد تلك المعجزة التي لم يخطئ الأوائل عندما اتّخذوها معبوداً وهي: الشمس!

فإذا كان بعضنا يراها جحيماً، فهي بالنسبة لأهل الشمال فردوس. ونحن الذين اغتربنا عن واقعنا البيئي مبكّراً وَحْدَنا من بين أبناء جلدتنا يعترف أنها حقّاً فردوس، لأننا في مقامنا الطويل في رحاب الشمال نراها بعيون أهل الشمال. نرى معبود القدماء هذا فردوساً دون أن نجد في طبيعة الشمال الفردوس أيضاً. وهو ما يعني أن الفردوس ليس فردوساً بالبستان، ولكنّه فردوس بالجنّية التي أبدعت الفردوس، بأنفاس معبود الأزل، بحِزَم الدفء المشرّبة بعروق الذهب

التي تمسح دموع الفجيعة من صفحة السماء فتبدّد فلول الغيم لتُهدينا عمقَ زرقةٍ مفقودة دوماً وأبداً في طبيعة الشمال. ولهذا تُحابينا طبيعةُ الجنوب لأننا أبناؤها، وتضطهدنا طبيعة الشمال لأننا فيها أغراب. فالطبيعة لا تمارس الحياد إلّا في العلاقة مع الوجود، ولكنّها تكشف القناع عن وجهها الآخر، وجه الانحياز، ما أن يتعلّق الأمر بالأجناس؛ كأنها تنتصر لسلالةٍ تؤكّد هويّتها. ربّما هذا هو سرّ العداء الخالد القائم بين الطبيعتين: طبيعة الشمال وطبيعة الجنوب، حيث تنتصب نقطة التماس التي يتحدّث عنها هيرودوت في زيارته لليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد. ففي الصحراء المرفوعة على قرون جبل نفوسة يلتقي النقيضان المتمثّلان في الدِّببة من جانب والفيَلة من جانبٍ ثانٍ، يتآلفان في مراعي البرزخ: الدببَة رُسُل الطبيعة القطبيّة، والفيلة رُسُل الطبيعة الاستوائية، لتغدو العداوة التقليدية قِراناً قدسياً مباركاً بناموس النقائض. إنه جدل الضدّ إزاء الضدّ الذي يقنّن العلاقة بين الفصول، ويخلق التوازن في سيرورة الوجود.

فلتعزف الروح أوتار جراحها، ولتَجُد النفس بنفسها قرباناً للبقاء! ولتبكِ يا سليل الجنوب في منافي الشمال حنيناً لشموس فردوسك المفقود؛ لأن الفقد إذا كان قدر وجود، فإن النَّوْح أغنية خلود.

أجزاء الجمال التسعة

(الجمال تسعة أجزاء؛ أي بعدد آلهات الجمال التسع. ولكنّ جزءاً واحداً منه فقط من نصيب كل الأوطان. أمّا الأجزاء الثماني الباقية فكلّها من نصيب وطنٍ واحدٍ هو: سويسرا!).

لا تبدو قمم الألب أسطورةً مجسّدةً كما تبدو من شِعاف «غولديفيل». كما لا تبدو السلسلة بسيمائها المعبودة في ناموس أهل سويسرا كما تبدو من هذه الشعفة المكابرة المشرفة على زهرة الألب «تون». «تون» المطلّة على البحيرة التي تحتضنها والتي تحمل اسمها. من البحيرة ينطلق نهر «آري» بغمرٍ سخيّ، نقيٍّ يعبر الحاضرة «بيرن» ليواصل رحلته إلى «بازل» حيث يستعير تلك الروح الأسطورية التي تغذّي أكثر أنهار القارّة العجوز أسطوريّةً وهو نهر «الراين» الذي

يخترق وطن الجرمان بعد أن أبدع من لدنه وطن الجرمان، ليكون مادّةً لملاحم هذه القبائل عبر العصور: الملاحم التي غذّت وجدان هذه الأمّة العبقرية فأبدع فرسان روحها «ذهب الراين»، و«أغاني النيبلونغ»، و«فاوست»، وغيرها. والسرّ؟ السرّ يتكتّم عليه المنبع. الأصل غنيمة تنام في أعماق بحيرة «تون»، ويبرطم بسيرتها لسانها المجسّد في نهر «آري» المجهول من الكلّ جهل الخليقة بالجذور! جهل الخليقة بالينبوع! جهل الخليقة بخالق الخليقة المعبّر عنه في جلّ الثقافات بالينبوع. هذا الينبوع الذي مجّده مريد «الراين» هولدرلين عندما تغنّى فقال:

«عسيرٌ أن يهجر المكان
ذلك الإنسان الذي
رام المقام بجوار الينبوع!»
وهي الرسالة التي لن تعني في الترجمة سوى:
«عسيرٌ أن يدرك حقيقة الوجود
مَنْ ارتضى الحضور في الجسد!».

ولكن الحقيقة عن النهر (نهر آري) هو ما لا يُخفى! الحقيقة المستعارة من أعماق بحيرة «تون» التي تلقّتها البحيرة وصيّة غيبيّة من وطنٍ كلّه غيوب: وطن الألب المشفوع بالقمم المكلّلة بشيب ملفّق من ثلج في كلّ الفصول كأنّه كفن الدهور. قمم تلامس النجوم في ليالي الصفاء، وتعانق قرطاس السماء،

حتّى إذا تبلبلتْ الأجواء استقبلت القمم في الغيوم أضيافاً هم رُسُل الوصيّة التي لا تتلقّاها القمم إلّا لتكون لها وسيطاً، إلّا لتكون لها رسولاً آخر إلى أحاضيض ترنو دوماً إلى حميمة اسمها السماء بروح عاشق اغترب عن معشوق، أو معشوق اغترب عن عاشق فهيمن على القطبين **الحُلُم**. الوطن كلّه يتحمّم بوَجْد الحُلم، بحمّى الحُلم: حُلمٌ في القمم، حلمٌ في الحضيض المرصّع بنقاء نبع كأنّه الجوهر، حلمٌ في سماء الصحو، حلم في سماء ملفوفة بالغيم، حلم في كسوة القمم المقنّعة بمسوح الكفن عن سرّه ويستعير لسان الحلم. في دنيا الألب فقط تتبادل رموز الطبيعة الأدوار لتتغنّى كلها بالحلم، بل لتغنّي كلّها نشيد الحلم! نشيد الحلم يُصيب بالعدوى أهل المكان فلا يكتفون بترديد أغنية الحلم، ولكن الحلم يذهب بهم بعيداً **فيحيون** الحلم. يذهب بهم بعيداً ليحيوا تجربة عشق الحلم التي صنع بها أهل وطنٍ باسْم سويسرا أسطورة أرضيّة اسمها سويسرا! فلم تكن أعتى جبال الدنيا لتتنازل عن استكبارها لتصير بين يدي الإنسان فردوساً حقّ لنا أن نسمّيه مستعاداً بعد أن كان عبر الأجيال مفقوداً، لو لم يتدخّل الحُلُم!

ولكن... هل كان الحُلُم يكفي لتحقيق أعجوبة تحويل أقسى واقع بيئي في العالم إلى أرجوحة فردوس؟

كلّا بالطبع! الحُلم عارياً كان سيظلّ شطحة درويش لو لم

يتسلّح بتميمة سحرية كانت عبر الأجيال سرّ الوجود، وهي: **الحبّ!**

لقد أحبّ السويسريون طبيعتهم فأحبّتهم طبيعتهم. تعشّقوا ألبهم فبادلهم الألب عشقاً بعشق! لقد اتخذوها معبداً فصارت لهم ملجأً. انحنوا في حرمها إكباراً فتنازلت أعلى القمم عن كبريائها وركعت تحت أقدامهم. ركنوا إليها بروح الحنان فتخلّت عن صرامتها، وزهدت في قسوتها، وبسطت عليهم جناح رحمتها!

لقد لقّن السويسريون العالم درساً لا في حبّ العمل فقط، ولكن درساً في أمر أعظم شأناً من العمل وهو: **الحبّ**. الحبّ ككلمة سرّ في العلاقة مع الطبيعة أوّلاً، ثم مع الآخر ثانياً. لأن الإنسان إذا كان حقّاً هو مقياس كل الأشياء كما يوصي القدماء، فإن الحبّ (أو القدرة على الحبّ) هو ما يجب أن يكون مقياس الإنسان لا في العلاقة مع أخيه الإنسان وحسب، ولكن في العلاقة مع فردوس الإنسان المتمثّل في الطبيعة الذي لم يكن جديراً بشرف لقب «الأمّ» وهو اللقب الرديف في كل الثقافات لمعجزة اسمها الحبّ، لأن التجربة برهنت أن الطبيعة لم تكن يوماً عدوّاً إلّا لأولئك الذين يُعادونها، بل لم تملّ من أن تقدّم لنا الدليل تلو الدليل على تسامحها حتّى مع جلّاديها الذين يستطيبون تعذيبها!

لقد استبعد أهل سويسرا في العلاقة مع هذه الأمّ روح

الصفقة التي كانت بليّة دنيانا منذ عرف الإنسان المنفعة (كدسيسة نتجت عن ممارسة نشاط تجاري سمّم بدن عالمنا بأسوأ وباء)، ليختار هؤلاء **الحبّ بديلاً** ، فلم تبخل عليهم الطبيعة بالفردوس فقط، ولكنّها أضافت إلى هذا النعيم نعيماً آخر هو : **الجمال!**

بالى!

الجمال تسعة أجزاء؛ أَيْ بعدد آلهات الجمال التسع، ولكنّ جزءاً واحداً منه فقط من نصيب كلّ الأوطان، أمّا الأجزاء الثماني الباقية فكلّها من نصيبِ وطنٍ واحدٍ اسمه: سويسرا!

جبلٌ تسكنه روح الثالوث

1

ينتصب جبل «نيزِّن» على الضفة الغربية من بحيرة «تون» صلداً صخريّاً صارماً بهندسةٍ طبيعيّةٍ تستخدم معماراً هرمياً مجبولاً بسيماءٍ غيبيّة، تتسلّق قامته التي يزيد ارتفاعها على الألفين والمائتي متر صفوف أشجار الصنوبر متشبّثةً بخاصرتيه الباديتين شوطاً بعيداً، ولكنّها تنتكس فجأة مستجيبةً لوعيد الجليد الذي يحتكر الجزء العلوي للامتداد، ويرفض أن يتّخذ في امتلاك القمّة شريكاً!

يجثم الجبل الأسطوريّ على البحيرة، مشرفاً على غمرها من علٍّ، تاركاً بين جرمه وسلسبيل البحيرة مساحةً هي بمثابة الهامش لأهل المكان كي يستزرعوا نبوتهم، ويسترعوا أنعامهم، كأنّهُ تنفيذٌ لعهدٍ مجهولٍ مُبرَمٍ بين الطبيعة الأمّ في القديم، وبين سليل الأمّ الوليد.

هذا الكيان الطبيعي المثلّث الأضلاع هو حجر الزاوية للألب، ونقطة انطلاق السلسلة الجبليّة من جانب مُقاطعة «بيرنرأوبرلاند».

2

أسطوريّة الجبل، في وجدان الإنسان السويسري، مُستعارةٌ من طبيعته **الهرميّة**. فالأهرامات هي الصروح الأكثر إجلالاً في ثقافات أمم العالم القديم، بدايةً بأهرامات الجيزة في مصر القديمة، مروراً بـ«زقّورات» سومر في بلاد ما بين النهرين، ونهايةً بـ«تيكّال» الهنود الحمر في المكسيك.

وكان بالإمكان أن تُعامَل الأهرامات معاملة بقيّة المعابد لولا وجود علامة مميّزة كانت رمزاً قدسيّاً في معتقدات العالم القديم وهي: **التثليث** في مقابل الإيمان **بالتثنية** المروّج لها في متون العهد القديم. فالمثلّث رمز الديانة الأولى، الديانة الطبيعية، عندما كان الإيمان بالأنثى التي أوجدتْ العالم من جوفها متمثّلاً في ربّة الوجود «تانيت»، أو «تانيس» التي بدأت رحلة الدياسبورا من الصحراء الكبرى لتبني لها حضارة «تانّس» في دلتا النيل، ويمّمت شطر الشمال لتؤسّس حضارة باسْمها في «تونس» (التي لم تكن في الأصل أيضاً سوى «تانّس» كما يؤكّد هيرودوت).

وقد سادت عبادة **أنثى العالم** هذه أمم العالم القديم في ربّة الحبّ والجمال في رمزين اثنين: **المثلّث** كشعارٍ يرمز للأنوثة منذ القِدَم وكان معبوداً في جلّ ثقافات العالم القديم، والصليب المتساوي الأضلاع الدّال على الحرف الأوّل من كل كلمة **مؤنّثة** في كل لغات العالم الحاملة لراية اللّاهوت البدئي مثل المصرية القديمة أو الليبية القديمة، لتختتم به الكلمة أيضاً كما في العربية أو الألمانية. وهو ما يعني أن سرّ الرمزين كامنٌ في مبدأ **الأنوثة**، لأن الأنوثة هي خليفة الطبيعة في الأرض، وما الذكورة في الصفقة سوى **بُعْدٌ مفقود** ، بُعْدٌ غيبيّ لا يختلف في طبيعته المغتربة عن الألوهة في صفقة الوجود. وهو تأكيدٌ على تأليه الطبيعة الأنثويّة للعالم اعتنقته المحافل الاستسراريّة عبرالأجيال سيّما الصوفيّة إلى حدٍّ جعل إمام التصوّف في الديانة الإسلاميّة محي الدين ابن عربي يقول في إحدى وصاياه: «المكان الذي لا يؤنّث لا يُعوّل عليه!».

وعندما تتبنّى المسيحية رمز التأنيث الثاني المتمثّل في حرف التاء مجسّدةً في مفهوم الصليب، إنّما تستعير الرمز الطبيعي، أو الوثني مستبعدةً رمز الأنوثة الثاني المتمثّل في المثلّث. لماذا؟

لم يكُن ذلك مُصادفةً. فتدخّل ديانة جديدة لا بُدّ أن يمسّ

رموز الديانة القديمة ليُدخِل عليها تعديلاً حسب ما تُمليه الشروط الأخلاقية للديانة الجديدة. فالمثلّث ليس مجرّد رمز للأنوثة، ولكنه **تعبيرٌ حرفيٌّ عن هويّة الأنوثة**. إنّه ترجمة مبتذلة للجسد كحرف، لا كرمز. إنّه تجسيدٌ **عضويٌّ** لهويّة المرأة متمثّلةً في **عضو** المرأة. والواقع أن الديانة الجديدة بوصفها ديانة **توحيدية** لا تستهجن حضور رمز الديانة الأولى **عارياً** وحسب، ولكنّها ترفض **الإيحاء** الذي يرمي إليه الرمز. إنّها تُنكر هُنا **المشاع**، تنكر **الاستباحة** في العلاقة مع المرأة كمبدأ أقرّته الديانة السابقة، لأن الديانة الدخيلة لا بُدّ أن تُملي شروط صاحب الغَلَبة من خلال وضع ناموسٍ جديدٍ للعلاقة بين الجنسين لا تعود فيه المرأة **مشاعاً**، ولكن لا بدّ أن تخضع العلاقة **للتثنية**. أي **شرعنة** العلاقة بعقدٍ مقدّسٍ مباركٍ بين طرفين متقارنين!

ولهذا زال مجد الرمز الأنثوي المعبّر عنه بالمثلّث ولم يبقَ سوى أطلالٍ مجسّدةٍ في صروح الأهرامات كأنّه يتحدّى ديانات العالم الجديد برغم التحريم، في حين أبَتْ الطبيعة الأمّ إلا أن تستنزله في وطن السويسريّين مجسّداً مرسوماً بيد الطبيعة نفسها إلى جانب رمز الأنوثة الثاني الذي استبقته ديانات التوحيد المتمثّل في تاء الأنوثة مجسّدةً في الصليب المتساوي الأضلاع الذي يرفرف فوق كل بيتٍ سويسريّ كأنه يؤدّي تحيّة إكبار للهرم المهيب الذي جسّدته الطبيعة في

الواجهة تأكيداً لهويّتهما المشتركة، وإعلاءً لروح ديانة السلف، وتحدّياً لغطرسة الدين المستحدث!

3

هل قلتُ «جَثَمَ» لترجمة موقف الجبل في إشرافه على البُحيرة؟

الواقع أنّي استعملتُ الكلمة الخطأ في التعبير، في وقتٍ كان يجب أن أقول فيه إن الجبل «**ينتصب**» بدل «يجثم» لأنّي بذلك أوجّه إهانةً لـ«نيزّن» **كمعبدٍ طبيعيّ** تقدّسه أفئدة السويسريّين إذا قورن ببقيّة جبال السلسلة، برغم أن هذا الاستخدام إذا كان تجديفاً في حقّ هويّة الجبل الغيبيّة، بيد أنه لا يُجانب العقليّة الأهليّة التقليدية تماماً؛ لأنه إذا كانت كلمة «**جثّامة**» الدّالّة في العربية على «الكابوس» مشتقّةً أصلاً من فعل «**جثم**»، فإن الألمانية اشتقّت مدلول «**الكابوس**» من **الألب** حرفيّاً في: (Alptraum) أي في ترجمة حرفية تقول: «**رؤيا الألب**» كنايةً عن الكابوس. وهي بالطبع استعارةٌ من فعل «جثم» كاستنزالٍ لثقلٍ لا يُطاق من مستوى أعلى ليسقط على جرمٍ أسفل. ولكي ننزّه «نيزّن» كهرمٍ أبدع منه التقليد حَرَماً فيجب أن نقول عندما نصِفُ وقفته المكابرة فوق مياه البحيرة المروية من مياهه السماوية: «**انتصب**»؛ لأن فعل

الانتصاب هو تعبيرٌ عن فِعلٍ ينطلق من حضيضٍ ليشقّ الفضاء في طريقه إلى أعلى: إلى **السماء**، تماماً كما ينطلق لسان النار في معابد المجوس من أسفل متّجهاً إلى أعلى، ودوماً **إلى أعلى**، **شهادةً على السموّ، وتوقاً لاستعادة الفردوس المفقود!**

الصلاة في محراب الهواء

عندما وقع الاختيار على «غولديفيل» لتكون مستوطنة آهلة بالسكّان منذ قرون، كان الهواء هو السبب: فقد اكتُشِفَ المكان كأحد المواقع النادرة في مملكة الطبيعة التي تصلح شَرَكاً لاقتناص الهواء!

لقد كنتُ أظنُّ إلى وقتٍ قريب (مثلي مثل الكثيرين) أن كلّ مكانٍ في الطبيعة واحة هواء، وكلّ ركنٍ في رحاب الجبال هو محراب ريحٍ ومعتقلٌ لكنوز النقاء، إلى أن ساقتني الأقدار في ثمانينيات القرن الماضي إلى منطقة «منيرالني فودي» لأحلّ ضيفاً على جبال القوقاز طلباً للنقاهة في قمّةٍ غنيّةٍ بالمياه المعدنيّة وظّفها ستالين منذ الثلاثينيات لبناء بيوت الإستجمام لأكابر الإمبراطوريّة واستغلّتها المؤسّسة المخوّلة بتقديم الخدمات للأجانب بعد تضعضع كيان الإمبراطوريّة وبداية بوادر الانهيار المجلجل والموجع. هناك، في هذا العشّ الخُرافي الذي يُناطح الغيوم، انشقّ سبيلٌ من مستوطنة السفوح

ليصعد إلى أعلى متعرّجاً، أنيقاً، محصّن الجانبين بأنواع الشجر، إلى أن ينتهي إلى شعفةٍ سمِحةٍ تشرف على امتدادٍ كأنّه الدنيا تتبدّى في أفقه قمّة أسطوريّة وحيدة متوّجة في كلّ الفصول بالثلج. تلك هي قمّة «البتروس» الذائعة الصيت، والشعفة هي الموقع المعروف باسم «**معبد الهواء**».

وفي السنوات التالية عندما استبدلتُ الأوطان، لم أجد مفرّاً من أن أستبدل القمم أيضاً (كما يليق بكلّ عدوسٍ سُرَى) لأستبدل المعابد أيضاً بهذا الاستبدال. ففي أعوام الإقامة بـ«هونيباخ» (المرتفعة عن سطح البحر أيضاً بما يزيد على الستمائة متر) كنتُ أستكشف في تجوالي اليومي المرتفعات المجاورة عندما وقفتُ مرّة أمام لافتة خشبيّة كُتِبَ عليها بالألمانيّة «طريق غولديفيل القديم». كنت أدري بالطبع أن الطريق المعبّد الصاعد عبر الجبل المهيب الغارق في قماطٍ منسوجٍ من شجر الشمال، إنّما يؤدّي إلى قُرَى كثيرة مجهولة أخرى إلى جانب «غولديفيل»؛ ولكن لا أدري اليوم ما سرّ افتتاني بالقرية الأخيرة دون غيرها: هل هو الاسم المجبول بالسحر الذي يقول في الترجمة «القرية الذهبيّة»؟ أم أن السرّ في اللافتة الخشبية الأنيقة المحفورة العبارة بطريقةٍ تبدو حرقاً بقضيبٍ من نار، كأنّه سيماء قبيلةٍ بدئيّةٍ اختطّتها يدُ راعٍ على فخذ بعير؟ أم أنّه الطريق البرّي المفروش بالحصباء، والتربة الحمراء، في منظرٍ حميمٍ يختلف عن مشهد الإسفلت القبيح

الذي يستبيح طبيعة المكان في شريطٍ أسوَدَ يتلوّى في صعوده إلى أعلى؟

فروحُ البرّية التي أيقظها في نفسي مرأى الطريق المستخرج الأحشاء، كأنّه لون النزيف، دغدَغَت الحنين النائم، الحنين الخالد إلى صحرائي الكبرى، فقرّرتُ أن أُدرك «غولديفيل». أطلتُ مسافة تجوالي علِّي أهتدي إليها فجأة كأنّها لقية. أهتدي إليها كما يهتدي أخيار السبيل إلى واحة «واو» المفقودة التي تتحدّث عنها أساطير الأمّة الصحراوية كأنّها الفردوس الضائع. وها هي «غولديفيل» تستعير خصال الواحة الضائعة حقّاً بدليل أنّها كانت تفرّ منّي كلّما اقتربتُ منها.

كنتُ أطيل مسافات نُزهاتي التقليدية في كلّ مرّة طمعاً في العثور عليها، ولكن الهدف كان يبتعد، والقرية تنقشع، فأعود أدراجي خائباً. لم أشأ استخدام الحافلة العموميّة للحلول في حضرة فردوسي المفقود، لا لأن هذا العمل النثري الركيك من شأنه أن يُفسد روح الشِّعْر وحسب، ولكن لأنّه سيُقلّل من شأن رومانطيقية الفوز، أو فلنقل سيُبطل مفعول البطولة القرينة لكل مغامرة. ولكنّي لم أحقّق المنال إلّا بعد أن ذقتُ مرارة الفشل مِراراً، فتأمّلتُ الأمر مليّاً لأكتشف ما تعلّمته بالتجربة وهو أنّنا نُهزَم أمام أصغر عقَبة لم نأخذها مأخذ الجدّ. وهو الدرس الذي يعني أنّ القرية المنشودة لم تستدرجني بعيداً، ولم تحتجب عنّي طوال هذا الزمن إلّا بسبب **استهانتي** بها. إنّه

الاستهتار في بلوغ تخومها. لأن الكنز السهل ليس كنزاً حتّى لو كان تبراً إبريزاً، واللقية العسيرة كنزٌ قحٌّ حتى لو كانت تُراباً. والدليل هو **الهواء**: نستهتر بالهواء استهتاراً يفوق استهتارنا بكلّ العناصر، بل وبكلّ الأشياء، ولا ندري أنّه إمامٌ في محفل العناصر، ورُكنٌ طبيعيّ أوّل في فيتافيزيقا الوجود إلّا عندما نفتقده. وإذا كان الأغيار يُبيحون لأنفسهم الاستخفاف بهذه الأعجوبة لأنهم لم يُبتلوا بإضاعة الهواء. وشخصي آخر مَنْ يملك الحقّ في اقتراف هذه الخطيئة، لأنّي لم أعبُر الستار الحديدي المنهار في أوطان الصقالبة إلّا طلباً لهذه المعجزة التي نتنفّسُها كل ومضة دون أن نُفلح في الاستغناء عنها لحظة. وكي أكفِّر عن آثامي لِتَوْقي للصلاة في محراب الخلاص استيقظتُ في أحد الأيام فجراً لأنطلق في الغيهَب بتصميم أسلافي عندما يخرجون في غزوةٍ، أو يذهبون في الطريق الطويل لتأدية فريضة الحجّ. وكمْ دُهِشتُ عندما بلغتُ تخوم فردوسي الموعود بأسرع ممّا تخيّلت لأكتشف أنّي كنتُ أعود في المرّات السابقة من نقطة لا تبعُد عن محراب الخلاص سوى أمتارٍ محجّبةٍ بكثافة الأشجار ليكون لي هذا الاكتشاف في رحلتي درساً آخر يقول إن المسافات التي **ننوي** بلوغها تقترب مهما ابتعدتْ، والمسافات التي بها **نستهين** تبتعد مهما اقتربَتْ!

كان يوم نزولي فردوس الأهوية ذاك نقطة تحوّل في تاريخ

مقامي بوطن الألب، لأنّي قرّرتُ التخلّي عن «هونيباخ» التي استضافتني أحد عشر عاماً عندما جئتها مستجيراً، مثخناً بالجِراح، فارّاً من فساد الأهوية في بلدان الصقالبة، لأهجرها إلى بيتِ حنينٍ يحتضنه محراب الخلاص، كأنّ القرب من السماء مئاتٌ من أمتارٍ أخرى تحقيقٌ للحلم الأبدي في استرداد الفردوس المفقود!

روح العالم

في الطفولة حلمتُ بالأشجار. وعندما نزلتُ الواحة لأوّل مرّة لم أجد بها أشجار الحلم، ولكنّي وجدت في ربعها الموبوء بالأسباخ أشجاراً من فصيلةٍ أخرى لم تمُتّ بصلة قرابة لأشجار الأحلام: أشجار سميكة الساق، خشنة الجذع، مُكابرة في ارتفاعها إلى الأعلى، كئيبة اللون، تتسلّح أعرافها بشباك من أشواكٍ شرهة، فتبدو بالمقارنة مع أشجار الحلم مُعادية برغم حنينها إلى السماء، وبرغم ثمارها الطيبة: إنّها النخلة!

ففي الصحراء لم أعرف سوى شجرتين من فصيلتين شوكيّتين هما السدر والطلح. ولم أعترف بهما كأشجارٍ لا بسبب الأشواك كما أظنّ، ولكن بسبب القامة، أو قصر القامة بالأصحّ؛ لأن الحلم أخبرني في نبوءته أن الشجرة قبل كل شيء جرم ميزته الأولى: القامة، علوّ القامة؛ وامتيازه الثاني: كثافة الأغصان. أمّا الجذع فصفته السُّمْك، وخصلته النعومة. بلى الساق لا بدّ أن يكون أملسَ في انتصابه إلى أعلى. كانت

مواصفات لا أدري اليوم من أيّ خزانة في الذاكرة تستطيع الأحلام أن تستعيرها. أم أن تلك الأحلام هي رسالة خفيّة تريد أن تبرهن نظريات تناسخ الأرواح فتقول إن جنس الشجر الذي أحلم برؤيته هو الشجر الذي عرفته في حياتي السالفة؟

بنزول الواحة ودخول المدرسة أول ما فعلته عندما وجدت القلم بين يديّ هو رسم الأشجار. رسمتُ الأشجار في كل ورقة وقعتْ بين يديّ. في كل الكرّاسات. وفي حواشي الكتب أيضاً. رسمتها بروح الرؤيا لا بعين الرؤية. رسمتها بهويّتها التي رأيتها في أحلامي، لا بهويّتها المرويّة بألسنة مَنْ حالفهم الحظّ وشاهدوا في حياتهم أشجاراً حقيقيّة. الرسم برؤيا الأحلام استهلك كل ما استطعت أن أحصل عليه من أقلام اللون الأخضر. فكنت أستزيد من هذا اللون ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولا أدري لماذا استهوت رسومي لسلالات الأشجار أساتذتي فكانوا يتناولون دفاتري ليعرضوها أمام بقيّة التلاميذ ليتباهوا بجمال الرسوم، وليحثّوا الزملاء على اتّخاذي في الإتقان قدوةً.

ولكن اللقاء مع أشجارٍ حقيقية لم يُكتب لي إلّا بعد نزول أوّل مدينة تنام في أحضان القارّة الصحراوية المنسيّة: السرو كانت أوّل شجرة هرعت لتلبية نداء الحلم!

كانت تلك حسناء حقيقيّة: بيضاء السيماء، ملساء الساق، مكابرة القامة، ممتلئة الجذع، سخيّة الأعراف، جسورة في

اقتحام الفضاء وتطلّعها إلى السماء، وإلى جانب كل هذه الخصال تنفث في أوراقها لوناً أخضر حقيقياً تماماً كما وثّقته الأحلام، لا اللون الأخضر الشاحب كما ورد في أوراق النخيل أو أوراق السدر أو الطلح.

منذ ذلك التاريخ بدأت سيرة ملاحقتي لسلالات الأشجار، فلا أستمتع بارتياد طلول الدهور أو آثار الأوّلين في بلدان الدنيا التي زرتها بقدر ما ألاحظ حال الأشجار ومللها في تلك الأركان؛ لأني في الواقع لم أشاهد أشجاراً حقيقية (الأشجار التي بلبلني بها حلمي الخفيّ) إلّا يوم وطأت قدماي أرض الصقالبة في الشمال الأقصى. في طريقي إلى هناك اعترضتني في سواحل الشمال الإفريقي أشجار الصنوبر، ولكن سحر شجرة البتولا في بلاد الديلم لا يُقارَن بأيّ فصيلٍ آخر في سلالة الشجر. ولهذا لم يكن مصادفةً أن تتحوّل هذه الشجرة رمزاً للجمال في قصائد شعراء الشمال سيّما الشعراء الروس. فالشجرة في بياضها الناصع، واستقامة قوامها، وطول قامتها، تبدو حسناء وفوق ذلك بتولاً، كأنّ الاسم ما هو إلّا استعارة صائبة للمسلك قبل السيماء. ولا أعرف لماذا استهوتني في الأشجار القامة، أو طول القامة، إلى حدٍّ تحوّلتْ فيه مقياساً لتلبية شروط كل شجرة. وإذا كنت قد عرفت فردوس أحلامي في أشجار روسيا فذلك ما لن أجرؤ أن أقوله عن أشجار أوكرانيا أو بولندا بسبب ضآلة القامة

وصغر الحجم وشحّ الأوراق في الأعراف. ففي روسيا أستطيع أن أعترف بأنّي عرفت حياة الغابة ولكن أشجار أوكرانيا أو بولندا كانت هزيلةً على نحوٍ يُذكّرني بالأحراش وليس بالغابات. وهي تجربة عشت مثيلاً لها عند زيارتي لـ «بورتلاند» بمقاطعة «مين» بالولايات المتّحدة حيث تنتشر أشجار في حجم الأقزام طوال الطريق الممتدّ من المحيط حتّى بوسطن. أشجار تسفّه «هنري ثورو» الذي مجّد طبيعة تلك المنطقة منذ ما يربو على القرنين في مؤلّفة المرجعيّ «وولدرن، أو الحياة في الغابة». فهل هاجرت الغابة من وطن الغابات، وفرّت الأشجار من مملكة الأشجار؟

والواقع أن الصدمة (صدمة فرار الغابات من الغابات وهروب التوق إلى السموّ من ملل الأشجار) لم تُخطئني أيضاً في بقاعٍ أخرى من عالمٍ كنت أتصوّره جنّة الأشجار مثل ألمانيا أو النمسا، أو هولندا، أو حتّى اسكندنافيا. في هذه الأركان هزلتْ الأشجار أيضاً وتضاءلتْ جرماً وقامةً إلى حدٍّ يستطيع فيه الزائر أن يتساءل عمّا إذا كان ما قرأه عند «كنوت هامسون» عن طبيعة اسكندنافيا، أو ما عرفه عن حياة «مارتن هايدغر» في «شفارتزفالد» في ألمانيا، مجرّد أضغاث أحلام. ويبدو أن وضع الغابة في سويسرا ما يزال هو الشفيع في شأن الحفاظ على الغابات كغابات في أوروبّا الوسطى برغم هجوم أنصال قتلة الغابات الوحشيّ على هذه الرقعة المتبقّية، في

حين يجاهد فرسان الطبيعة في إسبانيا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من غاباتٍ هي ضحيّة حرائق مخيفة كل عام إلى جانب مقصلة أعداء الطبيعة التي تحصد ما تخلّفه الحرائق الموسميّة. وكم أدهشني أن أكتشف غياب الأشجار في بلدان تخيّلتها أدغالاً مثل تايلاند أو اليابان، أو جنوب إفريقيا، فإذا بأحلامي تتبدّد في أوّل زيارة لأرى أشباحاً لأشجار بدل الأشجار، وظلالاً لغابات بدل الغابات، كأنّ صحرائي الكبرى (التي خرجتُ منها بحثاً عن أشجار هذا العالم) هي التي لاحقتني فبسطتْ نفوذها على العالم. فالشجرة روح هذا العالم، وسوف يلفظ هذا العالم أنفاس النزع الأخير مع روح آخر شجرةٍ تهجر ربع هذا العالم!

الشجرة كانت لي حلم المهد لأنها فردوسي المفقود؛ ولكنّها كأيّ فردوس قدرنا أن نفقده ما أن نجده!

الدّرب

1

الدّرب ينطلق من الأسافل صاعداً إلى الأعلى. عند تخوم المرتفع الأول ينشطر إلى شقّين، يذهب شقّ إلى المَيْسرة وآخر إلى الميمنة. ولكن الانشطار هو ما لا يضير الدرب، لأن قدر الدرب أن يتجزّأ في دروب، وإن لم يفعل فهو يخون طبيعته، يخون رسالته. في الحيد نحو الميمنة تنتصب لافتة صفراء تؤكّد هويّة الدرب في المسافة التالية التي تستبيح منذ الآن حرمة الحقول. هويّة تستبيح في العبارة المزبورة في اللافتة بإشارات العبور، ولكنّها تحذّر الحيد عن الدرب لئلّا تلحق الضرر بالحشائش التي تفترش الجانبين. إنها ترجمة مهذّبة للطبيعة الجدلية في كلّ قانون إلٰهي عندما يتنازل عن سجيّته السماوية ليستقيم في حرفٍ وضعيّ يقول نصّه: «لك الحقّ في أن تستخدم، ولكنّك لا تملك الحقّ في أن تهدم!». أي من

حقّ كل عابر أن يعبر الدرب، لأن الدروب مملوكة للجميع، ولكنه عبورٌ ليس بلا ثمن مثله مثل كل شيء في دنيا ملّة الفناء؛ والثمن هنا هو الإيفاء بشرط عدم إلحاق الضرر بما صنعت يد الفانين في الطريق. أي أن التحذير ما هو إلّا الوصيّة التي تلوّح بها في وجوهنا أمّنا الطبيعة في كل حين مردّدةً بلسان اللغة المنسيّة: «عِش، ولكن حذارِ أن تُفْسِد!».

إنه وثيقة العهد الأقدم من كل عهد والمبرم بين السليل كضيف وبين ربّة البيت (الطبيعة) كمستضيف. عهدٌ نال القصاص كلّ من سوّلت له نفسه أن يخلّ ببندٍ من بنوده!

2

عبارة اللافتة المكتوبة بروح العهد ترجمة أمينة لوصيّة مثيلة توارثتها أجيال الأمّة الصحراوية تحثّ أيضاً على وجوب التشبّث بتلابيب الدرب بأيّ ثمن بالقدر نفسه الذي يستوجب التشبّث بتلابيب ذلك الإنسان الذي بلغ من العمر عتيّاً. وهي وصيّة تترجم مديحاً صريحاً للأثر، أو بالأصحّ، للجرح إذا نقلنا فعل التجربة من حيّز مكان له حضور في الطبيعة (أي خارج الإنسان)، إلى نطاق له حضور داخل اللغز المسمّى إنساناً. فالدرب حفر في بدن اليابسة؛ أي أنه ذلك الأثر الذي حوّلته أقدام الفانين جرحاً في جسد الطبيعة الأمّ، كما التجربة

الدنيوية في روح فانٍ عَبَرَ الدرب طويلاً طويلاً لا بدّ أن تخلّف جرحاً في الروح عميقاً عميقاً.

ترويض الجسد بالمشي عبر اليابسة نسمّيه درباً، وترويض الألم في رحلة الزمن نسمّيه: حكمةً!

ولهذا السبب نلزم الدرب في أي مسير، لأن ذلك سيُجيرنا من أن نضلّ، كما يجدر بنا أن نستجير بشيخ نزف طويلاً حتّى بلغ من العمر عتيّاً، لأن الوصيّة من فمه تميمة خلاص.

لهذا تغنّى أهل الإيمان عبر الأجيال برسالة الدرب. تغنّى هؤلاء برسالة الدرب حتّى صار في يقين مريد الحقيقة ديناً. وهو ما أعطى الحقّ لكلمة «طريق» أن تصير في لغة اللاهوت رديفاً لمفهوم الدّين، ولمفهوم الحقيقة أيضاً، كما يعتنقه أهل التصوّف وكما اعتنقته تعاليم «طاو» أو «ثاو» في الصين القديمة كمفردة تدلّ على الطريق في الأصل فأضحت لهذا السبب معبودة إلى الحدّ الذي أباح اعتناق الوصيّة العدمية المستعارة من معجم هذه الديانة والقائلة: «مَنْ عرفَ الطريق في الصباح، في المساء يستطيع أن يموت!».

3

الطريق! الدرب! السبيل!

تعدّدت أسماء البصمة التي نحتفرها بأقدامنا على جسد

اليابسة كأنّنا نؤكّد بهذا الجرح في بدن أمّنا الطبيعة وجودنا. نلزم الدرب دوماً وإلّا لما كان لحضورنا في رحاب وجودنا معنى! فالفقد هو ما يستوجب الانطلاق في الطلب. لأن لا وجود بدون طلب؛ لأن الأنطلاق في مسيرة بدون طلب تسكّع، وليس رحيلاً. ضياع وليس سفراً. تيه يغيّب الدرب ذاته. تيه ينفي وجود الدرب برغم حضور الدرب. فالخروج إلى حرم الدرب رهين بأداء واجب. شروع في تأدية رسالة. رسالة ذات جناحين: دنيوي لقضاء حوائج، أو قدسي لتأدية واجب. الذهاب في الدرب لزيارة ذي قربى ألمّ به مرض واجب. الذهاب في الدرب لتقديم تعازٍ واجب. ولكن ماذا نسمّي الذهاب في الدرب للمثول في حضرة المعبد؟

الذهاب في الدرب لدخول المعبد قدس الأقداس الذي يفوق الواجب قيمةً لأنه زيارة للربّ في حرمه. وزيارة الربّ في حرمه هو ما نسمّيه بلغة الناسوت: **صلاة!**

4

كي ندرك ماهية هذه الصلاة، ونكتشف هويّة هذا المعبد، لا نملك إلّا أن نستعين بالدرب الذي خلّفناه عند اللافتة. وها هو يمضي بنا عبر ظهر الجبل المفروش بنبوت الحقول. ها هو الدرب يخترق بنا الحقول. الدرب يشقّ الحقول حريصاً

في مسيره على تنفيذ البنود المنصوص عليها في وثيقة العهد. فلكي لا يفسد في الأرض ينكمش. لكي لا ينتهك حرمة الحشائش يضيّق الخناق على نفسه فلا يتجاوز في العرض مساحة الشبرين. ولكن الهزال لا يزيده إلّا عناداً في المضي إلى الأمام. الهزال دوماً ضمان زهد. الهزال في الجرم صفة محمودة. محمودة لأن روح الألوهة تسكن الهزال.

في شعفة التجلّي ينحرف الدرب يميناً قبل أن يهوي. ينحدر إلى أن يبلغ البيت الريفي القديم فينشطر مرّة أخرى. الانشطار مزيّة الدرب. الدرب في سيرورته يفقد هوية الدرب إذا لم يهب من لدنه درباً آخر، بل ودروباً أخرى. لا يفعل ذلك إرواءً لظمأ الإغواء الذي يستدرج به عابراً يهدهد الفناء في قلبه كي يقوده إلى التّيه، ولكنه يمارس الجود. يمارس الولادة. ينتج من صلبه ذريّةً تتولّى واجب القيادة إلى جهة أخرى من أرض اللّه الواسعة: إلى جهة أعلى أو أخرى إلى الأسفل، إلى الميمنة أم إلى الميسرة، إلى صراط المجهول أم صراط مستقيم؛ الدّرب يقوم بتقديم الخيار، وعلى عاتق العابر وحده تقع مسؤولية الاختيار.

وها نحن نختار الشقّ الذي ينحدر عبر الحقول إلى الميسرة. ينعرج الدرب، ولكنه يمضي. على جانبٍ أيسر تنتصب شجرة التفّاح التي تجود في الخريف بثمارها لتطعم السابلة. نعبر بالدرب إلى أسفل حيث يتشظّى الدرب مرة

أخرى. جناح ينحدر إلى الأسافل وآخر ينحرف يميناً ليصعد إلى أعلى. نختار الميمنة. نصعد بالدرب. أو بالأصحّ يصعد بنا الدرب. **فوجودنا كلّه عبءٌ محمولٌ على ظهور الدروب. وبرغم ذلك لم يحدث أن قدّم مخلوق امتناناً للدروب!** يعلو بنا الدرب مسافة قبل أن ينحدر مرّة أخرى ليواجه لفيف شجر يرطن في أحشائه نبعٌ بلغة أمّنا الطبيعة المنسيّة. اللغة التي لم تكن لتستغلق على فهمنا لو لم نغترب عن أمّنا الأولى: **الطبيعة!**

ماء النبع يتلو صلاةً تبدو لأهل البهتان ثرثرةً، في حين تصيب المريد بنوبة الوَجْد، لأن خطاب النبع دوماً وصيّة: وصيّة مستعارة من الأعالي، من وطن الماء السماوي، موجّهةً إلى الأسافل، إلى الأرض حيث يستعيد الماء هويّته الدنيوية ليلهج بالبشارة. بشارة مزدوجة أبداً: بشارة السماء إلى الأرض بالتبدّي، وبشارة الأرض إلى السماء بالتبدّد. فما أحوجنا أن ننصت إلى الماء لا لكي نسمع برطمة تدغدغ الجسد، ولكن لكي نفكّ في الأغنية الطلسم الذي يروي الروح.

5

الدرب يمضي بنا إلى أعلى. في الجوار يترنّم النبع بلحون الأبود فنطير في مسيرنا إلى أعلى بجناح الحلم استجابةً لإيقاع

اللحن: لحن الحنين إلى بُعدنا المفقود. هذا البُعْد الذي لا نخرج عادةً لنسلّم أمرنا لمشيئة الدرب إلّا تلبيةً لندائه الخالد!

يرقص بنا الدرب بقيثارة النبع في الجوار. لا نستشعر عبث البدن في الصعود لأن ميلادنا في الوجد يطيح فينا بثقل الجسد ويحيي خفّة الطير. يحرّرنا موّال الماء في النبع فنسير بروحٍ عارية. نسير، بل نطير، حتّى نجد أنفسنا في أعلى ذروة: الذروة التي تجاور السحب وتشرف على قمم السلسلة الجبلية الناصعة البياض التي لا أحد يدري كيف حقّقت أعجوبة اختزال الفصول فتتقنّع بلثام الجليد في ذروة الأصياف. هنا يليق بنا أن نشارك النبع صلواته، لأن الدرب سينطلق بنا من هذا الحرم ليعود بنا إلى النقطة التي انطلقنا منها. في درب العودة نستطيع أن نقول إننا قمنا بنزهتنا. نزهة هي في العرف أداء واجب نحو أجسادنا. واجب لأنها تجلب العافية لأبداننا!

ولكن هل رحلة الدرب هي مجرّد واجب نحو جسد؟

6

الجسد دمية الدرب لاستدراج العابر الفاني إلى المعبد.

العابر في الصفقة مع الدرب حُجّة تستدرج لتأدية طقس عبادة هو: الصلاة!

لأن الطبيعة التي نعبرها بمشيئة الدرب وحدها بيت اللّه، وهي المعبد الأنسب والأطهر والوحيد الذي لا تجوز فيه الصلاة وحسب، ولكن الذي تُقبل فيه الصلاة. وهذا هو سرّ النشوة الوجدية الحميمة التي تتدفّق في وجدان كل من عاد في مسيرة الدرب إلى الطبيعة. إنه طقسٌ تطهيري من حيث هو شهادة نتبرّأ فيها من كل صفقة، من كل منفعة، ونعرّي الروح بذلك التجلّي الذي لا نحقّقه عادةً بدون أقصى أجناس العزلة. في هذا البُعد فقط نطرح كل شيء وراءنا، ونمثل بالتأمّل في ملكوت الربّ!

الدرب إذاً، حريّة. حريّة لا تكتفي بتحريرنا، ولكن تأبى إلّا أن تُلقي بنا في أحضان قاسية. وهي قاسية لأنها أحضان **الحقيقة!**

7

لا يعوّل على دربٍ لا يقود إلى الحقيقة. وأن يقود الدرب إلى الحقيقة هو ما يعطيه المضمون القدسي المعتمد في الكتب السماوية باسم: **الصراط!**

للشجرة هويّة أخرى

1

على جانب المسيرة من السفح الذي يخترقه الدرب متّجهاً إلى الأسفل تنتصب الشجرة: شجرة تفّاح!

شجرة تفّاح تائهة في متاهة حقل العشب المستزرع من قبل الفلّاحين برسيماً.

وما استهواني دوماً هو وقفتها في المساحة المفروشة **وحيدةً**، لأنّ كل الأجرام الوحيدة مسربلة في يقيني بمسوحٍ خفيّة. مسربلة بسيماء قدسيّة؛ كأنّ **الانقطاع** في المدى (أيّ مدى) ضربٌ من **ألوهة**، محاكاة لألوهة لأنه الخطوة الأولى في طريق الاغتراب. الانقطاع هو العتبة الدنيا في السلّم الذي يقود إلى رحاب البُعْد المفقود حيث تسكن الألوهة. ولهذا تستعير كلّ الأجرام التي تنتصب معزولةً هيبة مشفوعة بالإبهام. مشفوعة بالوَجْد أيضاً. مشفوعةٌ بنصيبٍ من حزن إلى جانب وسوسة كأنّها وميض إلهام. نحن لا نعود نعترف بهويّتنا

الأرضيّة عندما نمثل في حضرة مثل هذه الأجرام. نحن نغترب عن طبيعتنا كلّما وقفنا في ممالك الأنصاب، لأنّها في وقفتها خطاب. خطاب قيامة. خطابٌ نحقّق فيه ميلادنا الثاني بما هو **خطابٌ قيّامي**. تترجم الأنصاب بيان قيّامة حتى لو كانت أنصاب حجارة، فكيف إذا سكنت الجرم المنصوب روحَ شجرة؟

في الطفولة علّمنا عقلاءُ القبائل المسكونون بروح الكهانة بأن الشجرة في وقفة السكينة تؤدّي طقس الخشوع، وإذا ترنّحت بهبّة الريح فذاك تسبيح. أي أنها تؤدّي **الصلاة** في السكون وفي الحركة. وهو ما يبرهن أن الشجرة **كائنٌ مؤمن**. وهي لا تكتفي بممارسة مراسم إيمانها، ولكنّها تحثّنا على محاكاتها. تحثّنا على الإيمان. أي أن وقفتها رسالة. رسالة ناطقة. رسالة موجّهة لنا لكي نمارس الإيمان. الشجرة، كل شجرة، سواء أكانت طلحاً في صحراء، أو نخلةً في واحة، أو تفاحاً في مدينة، هي **وصيّة مجسّدة**. وصيّة مجسّدة مهمّتها تلقين الأجيال درس الإيمان!

2

وإذا كانت كل شجرة رسولاً يبشّر بإيمان، فليس من شكّ في أن شجرة التفاح جديرة بأن تحتلّ المنزلة الأكرم في قبيلة

الأشجار. وهو يقينٌ ترسّخ في معتقدات الأمم إلى حدّ كسبت فيه شجرة الجنّة (الواردة في المتون المقدّسة) هوية شجرة التفاح من دون كل الأشجار برغم أن فاكهة هذه الشجرة لا تفوق لذّةً فاكهة أشجار أخرى كثيرة. فهل هو إسقاطٌ من نتاج الذاكرة الشعبية للتعبير عن التفاحة كفاكهة تبدو أكثر فتنةً إذا قورنت بأيّ فاكهة أخرى، إلى جانب جودتها كطعوم كما يصفها سِفر التكوين؟

البهجة للعين، في السفر، تترجم **البُعْد الجمالي**، والجودة للأكل تترجم **البُعْد النفعي**. وحدة هذين القطبين في مديح فاكهة شجرة الفردوس يضفي عليها مسوحاً أسطوريّةً تستفزّ كل وجدانٍ دَيِّنٍ فلا يهرع لنجدته (عندما يلتفت حوله تفتيشاً عن مثيل يصلح نموذجاً) سوى فاكهة شجرة التفاح: «جيّدة للأكل، بهجة للعيون، شهيّة للنظر» (التكوين، 6 : 3).

شجرة الدّرب أيضاً مثقلة بكنوزها الجيّدة للأكل، المبهجة للعيون، الشهيّة للنظر. إنّها لا تكتفي بالوقوف آية إيمانٍ في منحدر الحقل، ولكنّها تلوّح بعطايا أيضاً: ثمرة بكر بحجم نهد صبيّة، بلونٍ مورّدٍ كوجنة صبيّة، بسحنةٍ مدوّرةٍ كوجه صبيّة! والصبيّة في معجم أمّة الأرض الفانية شهادة بكارة، شهادة ممهورة بختم البراءة!

وهي ليست هدية من بستان الجنان الأعلى عندما تُطرح في متناول السابلة (كما هو الحال مع شجرة الصراط)، ولكنها

تستبدل هويّتها لتصير أمنية. تصير ذلك الحلم الذي يهدهده كلّ فرد من سلالة الفناء بعيداً. تصير هاجساً معبّراً عن هويّة مفقودة منتظراً استعادتها يوم تقديم كشف الحساب!

وليس أدلّ على حقيقة هذه الملحمة سوى أمّ صديقي القديم الذي روى لي يوماً كيف سقطت أمّه صريعة الحمّى توقاً لقطعة تفّاح في ذلك الزمن العصيب الذي غاب فيه التفاح من أسواق البلاد، لتتحوّل الحمّى بمرور الأيام إلى مرض مجهول طرحها في الفراش، فلم يجد الصديق مفرّاً من السفر إلى أوطان ما وراء البحار بحثاً للأمّ عن التفّاح! وهي رحلة تصلح سيرة أوليسيّة حقّاً فيما لو سردنا الصعاب التي رافقتها قبل العودة بالغنيمة المأمولة المتمثّلة في التفاحة!

ولكن الرسالة لم تكمن في مسيرة الأهوال، ولكن قيمتها تسكن الوصيّة المبثوثة في نتيجة التقام الأمّ للطريدة: لقد كانت التفاحة بمثابة الترياق الذي جلب للمرأة الشفاء: الشفاء بالطبع لا بالمعنى الحرفي، ولكن بالمعنى السقراطي: الشفاء الذي يستوجب نحر الديك الأبيض احتفاءً بالشفاء من مرضٍ عضال اسمه: الحضور في الدنيا!

3

التفاح شجرة محفوفة بالأخطار لأن وصاياها المطلسمة قابلة للخطأ في التأويل مثل نبوءات إله معبد دلفى. وبرغم هذه

الطبيعة الجدلية بيد أنها في كل الأحوال خيارٌ وفيّ لمبدأ اسمه: الخلاص!

وها هي تعترض سبيلي كلّما خرجتُ لزيارة ربّ الأرباب في حرمه. تقف في منحدر الصراط وحيدةً باستعلاء القربان. وهي بالفعل تجسّد القربان، لأنها تمارس في كل خريف طقس القربان. فهي الشجرة الوحيدة، كما لاحظتُ، في الربوع التي لا تتحرّر من حملها، بل تبقى مثقلةً بعطاياها إلى أن يزول الموسم ويزحف الشتاء. يحدث ذلك لأنها وقفٌ. يحدث ذلك، كما اكتشفتُ تالياً، لأنها منذورةٌ للسابلة! إنها تلعب دوراً مارسه الفانون منذ القدم. ترك نصيبٍ من الحصاد لإطعام الطير. أو التنازل للغرباء عن نصيبٍ من محصول التمور، أو تحريم قطع عناقيد الأعناب المتدليّة خارج الأسوار ليتناولها المارّة!

إنها الحصّة الخالدة: الحصّة التي تعبّر عن امتنان الأرض رسالةً مرفوعةً إلى السماء توهب لخليفة الإله في الأرض، لأن في قلوب الغرباء وأهل السبيل تسكن الآلهة!

4

الجود بطبيعته ترويضٌ على التضحية. ترويضٌ للروح على التضحية. خوضٌ لتجربة عسيرة هي التخلّي عن الملكيّة.

عسيرة لأنها في حدودها القصوى حريّة. ولهذا الشجرة في وقفتها على قارعة الصراط معلَمٌ يلقّن الحريّة!

الشجرة في قيامها على القارعة نداءٌ يستدرج إلى الخطيئة، لأن القرابين المعروضة هي أجنّة. أجنّة من بطن جنيّة. والهبة في حقيقتها شِرْكٌ. شركٌ يكفّر عن خطيئة منسيّة. إغواءٌ لم أستسلم له أثناء تجوالي في دنيا الحرم برغم جهود جاري الأمريكي الذي استخدمَته الغيوب ليكون لها إلى دنياي رسولاً. كان يروق هذا العجوز الطيّب أن يجني من ثمار الشجرة نصيباً ليملأ جيوبه ليعرض مقاسمتي الغنيمة فأعتذرُ في كل مرّة. أعتذر تلبيةً لنداءٍ خفيّ كان عليّ أن أتجلّى طويلاً، وأتبتّل كثيراً كي أُلهَمَ السبب: فالشجرة ليست ككل شجرة، ولكنّها، كما تقول الذاكرة المنفيّة، شجرة تفّاح. وهي شجرة قربان تهب عطايا بالمجّان. ولا تكتفي بهذه الطباع الزهديّة، ولكنها تضيف فلا ترابط في أيّ مكان، بل تختار الحيد في الصراط. الصراط الذي يتلوّى في مسيره قبل أن يؤدّي إلى الملكوت حيث تسكن الحقيقة.

حقيقة الشجرة إذاً من حقيقة الملكوت. من حقيقة الحقيقة **مَنْ أكل من ثمارها موتاً يموت!** ولا يكفي أن ينال هذا القصاص المميت، ولكنه الموت المعادل لأن يعرف. أن يعرف أنّه سيموت. وهو قصاصٌ آخر أسوأ من الموت. والمُريد الذي احترف ارتياد رحاب الصراط لا يريد أن يعرف

برغم أنه لا يستنكر أن يموت. ولولا هذه القناعة لما راقه أن يتغنّى في تجواله مع من تغنّى:

Nicht zu denken, nicht zu wissen
Nur zu atmen, nur zu feuhlen(*)

(*) البيتان لـ هيرمان هيسه تقول ترجمتهما:
(لا أتفكّر، ولا أتعرّف!
حسبي أن أتنفّس، حسبي أن أتحسّس!)

البُعْد المَفقود

1

لا أدري لماذا كانت لي الصقور منذ الطفولة المبكّرة جنّة أحلام. ففي السنوات التي كنّا نتسلّق فيها هامة جبل نفوسة في امتداده نحو الغرب اعتدتُ أن أشاهد هذه القبيلة السماوية وهي تدوّم على نحوٍ طقسي بمحاذاة الصلد الذي ينحدر من القمّة الجبليّة في لوحٍ صارمٍ يستقطع من قامة الجبل نصيباً سخيّاً. وكان يدهشني أن تسبح هذه الطيور في هذا البرزخ فلا تتنازل لتحلّق في الأسفل، ولا تجتاز لتحوم في الفضاء الأعلى. وعندما استفهمت مرّة عن السرّ أجابتني الأمّ بأن الصلد هو بيت الصقور حيث تستودع صغارها، لأنه المكان المنيع الوحيد. وقد أدركتُ تالياً أن الأمّ كانت على حقّ، لأنّي وجدت في طريقي أعشاش طيور كثيرة، ورأيت فراخ طيورٍ مختلفة، ولكن لم يحدث أن عثرت على عشّ صقر، ولا أبصرت يوماً فراخ الصقر. ولم أكن أدري أن الصقور ستختفي

أيضاً من حياتي يوم ودّعنا رحاب الصحراء ونزلنا الأسافل بنزول الواحات. كان ذلك نفياً حقيقيّاً من الفردوس، ونزولاً حقيقياً إلى عالم آخر لن يكون في الواقع غير الجحيم الذي تحدّثت عنه الكتب السماوية!

كان جحيماً إلى الحدّ الذي رفض فيه شقيقي الأكبر البقاء في ذلك الحضيض المحزن يوماً واحداً! وقد لبّى له الأب هذه الرغبة فاصطحبه معه إلى حاضرة الواحات في اليوم نفسه ربّما خوفاً من أن يفعل شيئاً بنفسه وهو الذي كان لكل من عرفه قدوةً في التسليم وغياب أيّ رغبة!

بنزول الواحات انقطعت صلتي بدنيا الصقور.

انقطعت صلتي بالصقور لا في الواحات وحسب، ولكن في الحاضرة أيضاً، وفي منازل الشمال، مثل موسكو، أو وارسو، ولم يُكتب لي أن أستعيد هذه الجنّة إلّا بعد حلولي ضيفاً على سويسرا، واستجارتي برحابٍ كانت لي دوماً حلم يقظة وهي: قمم الألب!

2

هنا، في أرجوحة الطبيعة المتدلية في الفراغ (غولديفيل)، تتنازل الصقور عن عليائها لتركن إلى الحقول، كأنها بمسلكها تترجم الوصيّة التي تقول إن الأعالي وحدها المكان الذي

يُطمأنّ إليه، لأن مجاورة السماء وحده ما يمكن أن يعوّل عليه! وأحسب أن مَن جاور الصقور في عزلة الأعالي وحده يستطيع أن يفهم لغز الصقور. يستطيع أن يفهم سرّ الصقور المترجم في **الروح الأخلاقية** للصقور!

وعلّ أوّل خصلة في هويّة الصقور الأخلاقية هي: العفاف!

العفاف؟

بلى! وإلّا ماذا نسمّي الترفّع عن المساس بالجِيَف؟

الجِيَف؟

الواقع أن الاشمئزاز من انتهاش تلك الطريدة التي لم يسفح في نيلها عرقاً أو ينزف في انتزاعها دماً هي هبة مجانيّة مرفوضة في عُرف هذه الملّة المكابرة. وهذا الرفض هو التعبير الحرفي ليس عن العفاف وحسب، ولكنّه الدرس الأوّل في الزهد!

يروقني أن أعتلي القمّة التي اتّخذتها معبداً للتجلّي وتلاوة صلواتي فيُقبل هذا الطائر الذي لم أره في الطفولة إلّا عن بُعْد. لم أره إلّا حلماً لأننا لا نمتطي أجنحة الأحلام عادةً إلّا لنحقّق الحضور في البُعْد: البعد دوماً فردوسٌ مفقود سواء أكان في الزمان، أم في المكان. والدليل أننا نضطهد الحاضر ولا نعترف في أحلامنا سوى بالماضي، أو بالمستقبل. كما نضطهد الأمكنة التي نسكنها ولا نعترف إلّا بالأمكنة التي

هجرناها، أو بالأمكنة التي ننوي الذهاب إليها. ولهذا السبب فإنّ فردوسنا دوماً **بُعْدٌ مفقود**. لهذا السبب فإنّ سعادتنا دائماً مشروعٌ **مؤجّل**: مشروعٌ **زال**، أو مشروعٌ **منتظر**. فلماذا لا أقنع بحضور فردوسي، أو بحضوري في فردوسي، إذا كنت قد أفلحت في استحضار **غنيمة البُعد** في وجودي الراهن بعد أن كانت في الماضي غيبة دهر؟ ألا يكفيني سعادة أن يكون الصقر إلى جواري أخيراً، لأكون إلى جوار الصقر؟ ألم يكن لي المقام قرب هذه السلالة الأسطورية حلم الزمان؟ ألا يكفيك مجداً أيُّها الإنسان تحقيق الحلم؟ أليس فردوساً أن نجوس في البستان لنرتاد عروشاً مسكونة بروح الربّ؟ ألم يكن الصقر معبوداً في ديانة أسلافي (وفي كل ديانات الأوائل) بسبب هويّته كسلالة مجبولة رمزاً بهويّة الربّ؟ فلماذا لا أنسى حطام الدنيا، وأتنفّس بلسم القمم، وأتلقّى رسول السماء الذي كان في عقيدة الأمم دوماً بشارة، لأتلو الصلاة بأغنية التسليم التي تقول: «حمداً لمولاي الذي اصطفاني حتّى أشهدني يوماً أحيا فيه فردوسي»؟.

3

هل كان هَوَسي بالصقر تلبية لأمنية خفيّة؟

هل هَوَسي بملّة الصقور، لأن الصقر هو المخلوق الوحيد

الذي حلمت به منذ الطفولة؟ هل الولع بأمّة الصقر ولعٌ **بالزهد؟!**

ولكن ما اكتشفته في الصقر أثناء مقامي بجواره في رحاب الألب ليس الزهد وحده، ولكنْ خصالٌ أخرى علّ أعظمها وأبسطها في آنٍ معاً هو: **الترفّع** عن حضيض السفلة! أو بالأصحّ الترفّع بأيِّ ثمن عن الدخول مع ملل السفهاء في عراك! والدليل؟ الدليل تترجمه العلاقة مع الغربان! وقد لاحظتُ، كما لاحظت معي مريم، كيف تقرع هذه الكائنات المنكرة نواقيس الخطر ما أن تستشعر اقتراب صقر! إنها تعلن حالة الطوارئ حتّى أضحى قلقها ونعيقها المنكر قرون استشعار تسبق وصول الصقر! أمّا إذا استظهر سلطان السماوات ذاك فلا تتأخّر الغربان في شنّ الهجوم! وهي كأيّ ملّة عبيد لا تجرؤ على شنّ غاراتها قبل أن تلتئم في عصابة. إنها شريعة الجبناء أيضاً بالطبع! ولكن ما كان لي دوماً الدرس الذي لا يُنسى، والوصيّة التي يجب أن أعتنقها كتميمة، هو مسلك الخصم في هذا العدوان: مسلك الصقر الأخلاقي!

ردّة فعل الصقر هي ما يثير الإعجاب، لأن ضبط النفس الذي يتحلّى به في مثل هذه المواقف يرتقي إلى مستوى الإعجاز! يتجاهل الصقر طلائع الغربان باستهانة حتّى أنه لا يكلّف نفسه عناء الدفاع عن النفس! إنه لا يُجارَى في كيفيّة تجنّب الطعنات، ولكنّه لا يستخدم مواهبه لردع العدوان أبداً،

كأنّه يقول إن المعتدّ بنفسه يحطّ من قدره عندما يستخدم قوّته! كأنّه يلقّننا الدرس الذي يقول إن **الحرّ** حقّاً هو من لا يكلّف نفسه عناء الرّد على كيد السفلة، لأنه يصنع بهذا الفعل من السّفيه **ندّاً**، ومن عبد العبيد **سيّداً**! إنها الأمثولة التي ترجمها هيرودوت في سيرة السكتيّين الذين خرجوا في غزوة طويلة بعد أن خلّفوا في البيوت عبيدهم. وعندما عادوا بعد غياب استمرّ ثلاثين عاماً حاربهم عبيدهم بعد أن نصّبوا من أنفسهم على الوطن سادةً وعلى نسائهم أزواجاً! وقد ارتكب الفرسان خطأً فادحاً عندما دخلوا مع عبيدهم في حربٍ حقيقية استُخدمت فيها السيوف كأسلحة، لأنهم هُزموا أمام عبيدهم! ولكنّ حكيماً هرع لنجدتهم عندما اقترح استبدال السيوف بالسياط في مواجهة العبيد. وبالفعل فرّ العبيد وانهزموا ما أن شاهدوا السياط في أيدي سادتهم! فرّ العبيد لأن مرأى السيوف في أيدي السادة أوحى لهم بهويّة **السادة**، ولكن مرأى السياط أعادهم إلى صوابهم لأنها ذكّرتهم بحقيقتهم **كعبيد**!

لا أملّ من تأمّل هذه الأمثولة المستعارة من تاريخ ما قبل التاريخ، لأن خطيئتنا في هذا الزمان، وفي كل الأزمنة، هي معاملة العبيد كسادة! مصيبتنا تكمن في النظر إلى أناسٍ سوادهم الأعظم كلّه عبيد يتنكّرون في لباس السادة، ومعاملتهم على أنهم سادة؛ وننسى أن إنساناً واحداً فقط من بين ألف وربّما من بين عشرة آلاف يستحقّ أن نطلق عليه لقب **سيّد**!

والدليل أننا إذا شئنا أن نختبر معدن أهل الدنيا الذين يدبّون من حولنا فليس علينا إلّا أن نعامل هؤلاء معاملة السادة! سوف تكشّر الأغلبية العظمى عن أنيابها عندها لتكشف القناع عن حقيقتها كعبيد! سوف تدير لنا الأغلبية عندها ظهرها لا لتدعنا وشأننا، ولكن لتعرّي لنا سوأتها، مع الاعتذار للمعلم «شوبنهاور» الذي لم يملّ من أن يردّد هذه الوصيّة في حياته كما في كتبه، لأنه لم يكن ليحترف العزلة إلّا لهذا السبب، كما لم يحترفها «هيسّه» إلّا لهذا السبب، كما لم يحترفها «نيتشه» إلّا لهذا السبب، كما لم يحترفها ناسكٌ، أو زاهدٌ، أو قدّيس، أو نبيّ، أو أيّ مخلوق به ذرّة من نُبْلٍ إلّا لهذا السبب!

أعترف أنّي لم أستجر بالألب لأحترف العزلة إلّا لتضميد جراح الطعنات التي أصابني بها العبيد طوال سفري الطويل لعبور جحيم هذا العالم. وها هو طائر القداسة الذي احترف العزلة، بل وعلّم الأجيال فضيلة العزلة، يطرح في وجهي بالمجّان أنفس وصيّة في **التقيّة من شرور العبيد!**

الوصيّة التي يجسّدها الصقر بمسلكه تؤكّد أن مجرّد وجود النبيل على قيد الحياة هو في عُرف العبد استفزاز يهدّد وجوده، هو عدوانٌ على حياته شخصياً! ولهذا ليس على الأحرار في هذا العالم إلّا أن يتلقّوا الطعنات بالمجّان، وستظلّ الطعنات تنهال على أرواحهم قبل أبدانهم، وسوف تلاحقهم حتّى في خيارهم الوحيد الفاجع: **الاغتراب!**

باقة الألب

«الناس نسوا الحقيقة (قال الثعلب). أمّا أنت
فلا يجب أن تنسى: أنت مسؤولٌ إلى الأبد عمّا
دجّنتَ. أنت مسؤولٌ عن الوردة!»

(أنطوان دي سانت أكزوبيري)

اسم الفندق الواقع على الطريق المؤدّي إلى مدينة «تون» المستلقية على ضفاف البحيرة في الأسافل هو «بلومليس ألب» الدّال في الترجمة على «زهرة الألب» وهو اسمٌ تنازعه فيه قريتنا الذهبيّة «غولديفيل»، كما حقّ لمدينة «تون» أن تنازع في الغريمين، وهو ما لن يُبطل حقّ عشرات (بل مئات البلدات والمدن الأنيقة الأخرى) في منازعة رموز هذه الأنحاء في الاستئثار بهذا اللقب الشعري النبيل. وهو ما لن يعبّر عن افتتان الإنسان السويسري بالأزهار فقط، ولكنه يترجم أيضاً طبيعة هذا الإنسان المهووسة بكلّ ما متّ بصلة لمملكة الجمال. وهو ما بوسع كل عابر سبيل زائر أن يلاحظه في

تجواله بوضوح إلى حدٍّ صار فيه هذا الوطن مضربَ مثلٍ في عبادة الزهور. وكم أخجلني أن أرى بستاني الصغير المتشبّث بسفح الجبل المواجه للبيت قاحلاً خالياً من الزهور كبقية بساتين أهل الجوار كأنّما ينتصب شهادةً على هويّتي الصحراوية. وفي سنوات إقامتي الأولى راقني دوماً أن أجلس في الشرفة محتضناً كتاباً لأتطلّع إلى قمم الألب المرصّعة بالشيب الأبدي كلّما دفعتني الجُمل المقروءة إلى التأمّل. ولكنّي اكتشفت مع مرور الوقت منازعاً لجمال الألب ظلّ ينتزعني من مشهد الأفق ليردّني إلى الأسفل حيث ينبسط بستان جاري في الطابق الأسفل لينتصب هناك ساق شجرة متوّج في الشعفة بباقة ورد ما لبثت أن أذهلتني وأجّجت شهيّتي لمملكة الحُسن هذه لدرجة قرّرت فيها أن أخون وعداً قطعته على نفسي بعدم امتلاك الكائنات الحيّة بكلّ أجناسها الحيوانية والنباتية. وقد ساءلت نفسي تالياً: أيُّ سلطة يمكن أن يمتلكها هذا النصب الهشّ حتى يختطفني من رحلات أحلامي في القمم لأصير له أسيراً؟

قاومت الشهوة الآثمة إلى الملكيّة، ولكن مرأى هذا النصب الفاتن في بستاني تحوّل حلماً، بل هاجساً. ولكنه الحلم الذي لم يُكتب له أن يتحوّل واقعاً إلّا يوم اقتحمت مريم رحاب «غولديفيل» وقررت أن تزرع في بستاني القاحل زهوراً: استزرعت زهوراً كانت في الهويّة كلّها وروداً، ولكن

باقة الورد المشيّعة على رأس ساق شجرة ظلّت حلماً بعيد المنال. كنت قد استفهمتُ من جارتي عن شجيرة الحلم التي تتوّج بستان جارنا في الأسفل فأفادت بأن السرّ في **الحرفة**. فالرجل تاجر ورود، ومن الطبيعي أن يتفنّن في اقتناء كل ما ندر منها حرصاً على **ازدهار** المهنة! وهي معلومة زرعتْ في قلبي يأساً في زمنٍ سبق غزوة مريم للديار بأعوام. وقد حدّثتها عن غرامي بشجيرة الأحلام تلك وبرغبتي في أن أراها تزيّن بستاني منذ وصولها متندّراً بمهنة الجار السفلي الذي يحترف المنكر بممارسة تجارة زهور هي رمز الجمال الذي لن يكون بدوره سوى الرمز الدالّ على المعبود، أي الألوهة! وهو ما ترجمه في مسلكه الغريب، عن حميمية السويسريين، لأعلم السرّ من الجارة أيضاً التي أخبرتني تالياً بهويّته الحقيقية: الألمانية!

تركتُ أمر الباقة التي تجلّل ساق الشجرة كأنها إكليل الغار لداهية الزهور وقنعتُ بتأمّلها من أعلى في لحظات التجلّي إلى أن زفّت لي مريم البشارة في أحد الأيام وهي تقدّم لي صور الشجرة ـ الباقة منشورةً في كتيّب دعائي لمؤسسة تقع في بلدة «شمبول» الواقعة في الطريق بين «بيرن» و«زيوريخ».

بعد أيام كنت أنهمك في غرس أميرة النبوت في قلب البستان عندما مرّ أحد الجيران العجائز في طريقه لتأدية النزهة في الحقول ليحيّيني قائلاً: «أن نزرع ورداً يعني أن نحيا!».

تذكّرتُ جدل الرؤية السقراطية عن الجمال بالمقارنة مع الرؤية الكانطية فتساءلت للمرّة الألف: ما الذي يستهوينا في جمالٍ يبدو هشّاً بلا حدود كالوردة؟ هل يُعقل أن تكون الهشاشة برهاناً على سلطة، بل على إعجاز؟ وكنت أجيب في كل مرة: ولماذا لا تكون الوردة على القلوب سلطاناً إذا كانت في هشاشتها التعبير الصريح عن الروح؟ هل ثمّة وجود لما هو أكثر هشاشة من الروح، وما هو أعظم شأناً في الوقت ذاته من الروح؟

في السنة الثالثة لحلول شجرة المنتهى تلك في رحاب البستان شهد الألب فصلاً شتوياً قاسياً قضى على حياة الزهور بما في ذلك هذا النوع من الأشجار: في بستان الجار مات تاج البستان ذاك أيضاً، وقد أيقنّا بهلاك لقيتنا ونحن نراها أعواداً يابسة في منتصف الربيع حتى أننا فكّرنا في اقتلاعها كما فعل جارنا، ولكن مريم فاجأتني في أحد الأيام قائلةً إن الباقة استيقظت من بياتها الشتوى وأينعت من جديد! هرعتُ إلى البستان لأكتشف بروز أغصان لعاعٍ أسفل فروة الباقة اليابسة في تحدٍّ عنيد لمشيئة الطبيعة لتكوّن مشروع فروة جديدة، كأنّها وصيّة تقول: **اغتربت باقة الجار بروح الغنيمة، وبُعثت الروح في باقة بستاننا بعبادة القيمة!**

القمم

1

للمُشاهد من موقع في الحضيض تبدو رؤوس الجبال دائماً حلماً مُسربلاً بالشِّعر: رؤوس الجبال من هذا الموقع ليست رؤوساً، ولكنّها قمم؛ وليست من صلد، ولكنّها جرمٌ معجون بوسواس الرؤيا. تجسيدٌ لنيّة، وشروع في رحلة. رحلة الخلاص من أوحال حضيضٍ مبتذل توقاً لبلوغ **حرم**. حرم ارتبط في كل المعتقدات بحضوره في السماء. أي أن قمّة أيّ جبل هي بمثابة خطوة أولى في سفر خروج، وشروعٌ مقدّس في **تحرّر**!

هذا بيانٌ نستطيع أن نقرأه وصيّةً منطوقةً بسيماء أكثر أجبال الدنيا كآبة، فكيف إذا كانت رؤوس الجبال قمماً مرصّعةً بفصوص الجليد لا في فصل الشتاء وحسب، ولكن في كلّ الفصول كما هو الحال مع الألب؟

في هذه الحال لا تبدو القمم أكثر جمالاً، ولكنّها تصير

أبعد منالاً. وبُعْد المنال يُكسبها ذخيرةً أخرى تتجلّى في الإيمان بقدرتها على **إيواء الآلهة!**

وهو إيمانٌ ترجمته كلّ ميثولوجيات أمم العالم القديم وبثّته يقيناً في ملاحمها على نحوٍ يدعونا لأن نسلّم بقمم الجبال كوطنٍ حكر على الآلهة!

والدليل؟ الدليل يقدّمه لنا فرسان الأجبال بالمجّان: فلم يكن محترفو تسلّق الجبال ليعرّضوا حياتهم للأخطار لو كان صعود قمم أعلى جبال الدنيا مجرّد نزهة لاعتلاء جلاميد الصلد، ولكن الإحساس بالنزول **أضيافاً** في وطن الأرباب هو ما يهب المغامرة ذلك السحر الجدير بالفخر وبركوب الخطر!

2

إذا كان المثول في حرم الألوهة خلاصاً، فهو خلاصٌ مرّتين لا مرّة واحدة: خلاصٌ بطبيعة مزدوجة: خلاصٌ لمريد الروح، وخلاصٌ آخر لعليل الجسد. هذا يقينٌ أصيلٌ اعتنقته الأمم لا على المستوى الاستعاري وحسب، ولكن على مستوى **الحرف** أيضاً: فهذا الوطن الربوبي إذا كان يجير الروح، فجديرٌ به أن يجير البدن أيضاً. ولمّا كان الحضيض ساحة العلل الأبديّة، فإن القمّة الجبليّة (كمقام ألوهة) هي **حصن استشفاء** بالمقابل!

معادلة طفوليّة؟

ولكنّها المعادلة التي ساقتني للاستجارة بقمم الألب يوماً عملاً بوصايا طبّ استدرج أغياراً قبلي طلباً لنقاوة أهوية كانت منذ الأزل ترياقاً لعلل جهازٍ يبدو أبسط أجهزة البدن البشري فنستهين به، ولا نكتشف أنه أنفس الأجهزة على الإطلاق إلّا عندما يُصاب بعطب وهو: التنفّس!

فالألب، من قديم، كان جنّة مصحّات الاستشفاء التي يؤمّها مرضى الجهاز التنفُّسي من كل الأوطان، وكان من الطبيعي أن أذهب لأحطّ رحالي في رحاب هذه الجنان تضميداً لجراح سنين المقام الطويل والموجع في بلدان شرق أوروبّا، دليلي في ذلك ليس الوسطاء أو نصائح الأطبّاء، ولكن «توماس مانّ» في عمله الملحمي «الجبل السحري»، دون أن يخطر ببالي أنّي مهدّد بأن أحيا تجربة أبطال الرواية التراجيدية: أبطال يُقبلون على قمم الجبال للاستشفاء، فإذا بأحوالهم الصحية تزداد سوءاً، كأنّها تلبّي نداء الجدل، أو تترجم أمثولة سقراط عن الديك الأبيض!

3

ألا نحلمُ ببلوغ القمم لنمثل بين أيدي الآلهة؟

أول بند في العقد مع الآلهة يقول: «لا أحد يراني

ويعيش!». (سِفر الخروج) ونحن نمنّي أنفسنا بعبور البرزخ إلى جانبه الآخر دون أن ندفع المكوس المنصوص عنها في العقد والتي تقول: «هل تريد أن تحبّ الله؟ إذاً عليك أن تحبّ الموت! هل تريد أن ترى الله؟ عليك أن ترى الموت! هل تريد أن تقيم في ملكوت الربّ؟ عليك أن تقبل المقام في الملكوت الذي لا وجود له خارج مملكة الموت!».

فهل خذلني الألب (كما خذل أبطال رواية توماس مانّ) يوم دفع عجلة العطب مسافة أخرى باتّجاه الحدود القصوى، أم الخلل إنّما يكمن في خطأ تأويلنا للنبوءة الحاملة دوماً للبذرة الضدِّية مثلها في ذلك مثل نبوءات معبد دلفَى؟

4

فأن تفي آلهة القمم بالوعد لا يعني أنها ستخالف ناموس الطبيعة الأمّ؛ لأن الإخلال بهذا الناموس هو ما يعجز حتّى الآلهة مثله مثل القدر الذي يقرّ إله معبد دلفى أنه لا سلطان للآلهة عليه. ولو احتكمنا إلى ناموس الطبيعة هذا لاكتشفنا أن القمّة تجود بالنقاوة (نقاوة الأهوية)، ولكنّها لا تضمن **كمّ** الهواء الموهوب؛ لأن الشفافيّة (النقاوة جنس من شفافيّة لأنّها **كيف**) رهينة انعدام الوزن المتمثّل في الكمّ. أي أن الكيفيّة لا تتحقّق بدون تضحية بالكمّية: تستنشق الرئة العليلة

هواء **أنقى**، ولكنّها تتزعزع بانعدام **الكمية الكافية** لعمل الجهاز التنّفسي!

المعادلة هنا لا تعود طفولية كما توهّمنا في البداية، ولكنّها تستعير أبعاداً طبيعية: الأبعاد الطبيعية التي تهيمن بالسلطان الخارج عن سلطان الآلهة!

هذه كلمة الطبيعة، ولكن ماذا بشأن كلمة الوجه الآخر للعملة الوجودية: كلمة الغيوب.

5

نحن في حمّى هَوَسنا بالحرف ننسى إلى أين يقودنا الهوس بالقمم!

نحنى ننسى أن الطريق إلى القمّة يقود إلى الصعود. والصعود ركوبٌ خطر بما أنه حميم سماء: السماء ذاتها التي نخافها ونتوق للقائها في آنٍ معاً. أي أنها القصاص الذي نخشى والخلاص الذي ننشد، لأن المبهم فينا أكثر قدرة في التعبير عن نوايانا المجهولة. والشفاء، في لغة الغيوب، يكشف هوية الطلسم المعبّر عن مشيئة الغريزة: الغريزة التي تذهب بنا إلى الموت في مقابل عقلٍ يذهب بنا إلى الحياة.

والشفاء في بُعده الأدنى قد يعني تعافياً للجسد من علّة. وهو في هذا البُعد **وقتيّ**. أو بكلمة أخرى **نسبي**! ولكنّه في

عُرف الغيوب ينتحل سلطان **المطلق**. إنه هنا **أبديّ!** أي أنّه الترجمة الأمينة لوصيّة تجري على لسان سقراط في أمثولة «الديك الأبيض» التي لن يكتب لنا أن نفكّ طلسمانها ما لم نفهم الرسالة في صيغتها كتركيبٍ سنّ اليونانيُّون حرفه في التقليد، وصوَّبَ الحكيم مدلوله في المجاز. وها هو يتجرّع السمّ ليطلب من تلامذته أن يحرصوا على نحر الديك الأبيض. تلك كانت وصيّته الأخيرة: بل هي وصيّة الوصايا التي لن ندرك حقيقتها ما لم نفلح في فكّ اللغز الذي دسّه عقلٌ استعاريّ بالفطرة كالعقل اليوناني في العادة السائدة التي توجب على مَنْ ألمّ به مرض ثمّ تعافى بذبح ديك أبيض كقربان. ونحرُ هذا الديك في حال سقراط يعني **شفاءه** أيضاً من مرض: مرض أعظم شأناً بما لا يُقاس لأنّه شفاءٌ من مرض أخبث هو أصل لكل الأمراض: الدنيا!

كلمة «**شفاء**» ذات طبيعة **جدليّة** في ثقافة أهل الصحراء الكبرى أيضاً إلى جانب مدلولها السحريّ أو الغيبيّ. وهو جدلٌ يبدو مسلّحاً بالمنطق فيما إذا تأمّلناه كنهاية لوجع. فإذا سألنا عن حالِ إنسانٍ ألمّ به مرض في هذا المجتمع التقليدي وقيل لنا إنه **شُفي** فليس لنا أن نقنع بجوابٍ كهذا بل علينا أن نستفهم عن **هوية** هذا الشفاء: هل هو الشفاء الوقتيّ، أم الشفاء الأبدي؟! فشفاء اليوم أو الغد أو حتّى الأعوام ليس ضماناً لحضور العافية لا لكون المخلوق الفاني عرضةً لعودة

المرض وحسب، ولكن لعلّة العلل الناتجة عن الإحساس التراجيدي بالوجود، أو فلنقل الإحساس الوجودي بالحضور في الوجود. ووصيّة سقراط عن الشفاء المعبّر عنه بنحر الديك الأبيض قرباناً إنّما تعني هذا الجنس من الشفاء.

6

ألن يعني هذا أن خيار القمّة مجبول بخطر ذلك النوع من سوء الفهم الملازم لأمانينا الموجّهة إلى الأرباب؟ ألم تفقد كاهنة المعبد القديم ولديها عندما توسّلتْ ربّ المعبد أن يرحمهما بأعظم خير في عُرف الآلهة لأنها تجهل ما تراه الآلهة أعظم خير، لتجدهما عندما استيقظت في الصباح ميّتَين؟ ألا يبدو توقنا لارتياد القمم بحثاً عن شفاء ساعةٍ مغامرةً غير مأمونة العاقبة إذا حكّمنا بشأنها أرباب القمم قُضاةً؟ ألا يبدو الظمأ إلى الحرية في حدودها القصوى طلباً لخلاص في متناول اليد، لأن الانتحار أيضاً أمنية **دفينة** وكلّ أفعالنا العدوانية ضدّ الأغيار ما هي إلّا حيلة لقلب الوصيّة القديمة القائلة: «بيدي لا بيد عمرو» لتصير: « **بيد عمرو لا بيدي**»؟

7

بنزول شعاف الجبال طلباً للشفاء لا تخطئ الطبيعة في حقّنا عندما نظنّ أنّها أساءت فهمنا، ولكننا نحن مَن يخطئ في حقّ هذه الأمّ التي يبدو أنّها أرحم بنا من أنفسنا عندما تؤآخذنا **بنوايانا الأبعد منالاً** يقيناً منها بأن الحقيقة لا تسكن حرف المعنى، ولكن في **نقيض** المعنى! فنحن لا نقول للقمم (بالنزول في رحابها) أيّ شفاءٍ نريد، كأنّنا بهذا نستعيد سيرة كريوز ملك ليديا مع ربّ معبد دلفى، أو سيرة كاهنة المعبد الشقيّة في شأن الأمنية المميتة، لأنّنا نجهل أن تطهير الأهوية من أوساخ الأحاضيض ما هو إلّا **درجة أولى** في سلّم لا بدّ أن ينتهي بتخليص الروح من الجسد في حال استنطقنا هوية الاستشفاء: فاللّغة لم تطلق اسم **الريح** على الهواء من باب المصادفة، كما لم تزاوج بين **الروح** والريح عبثاً. فرحلة الاستشفاء التي تبدأ **بتصفية** الهواء، أو الريح، من أدران الأسافل بقصد التنفيس عن النفس لا بدّ أن تنتهي **بتصفية** الروح من الجسد في **الحدود القصوى** لمفهوم الشفاء؛ لأنه إذا كان ترياق النفس (أو التنفّس) في **نقاء الريح**، فإن ترياق الروح في **الحقيقة** الواقعة في المسافة التي **تلي** القمّة: أي في الموت!

الأجراس

«غولديفيل»، إلى جانب كونها محراب أهوية الاستشفاء بحكم موقعها الذي يزيد على الألف متر فوق مستوى البحر، فهي حَرَم الصّمت أيضاً: صمتٌ ليس ككلّ صمت، ولكنه صمتٌ مجبولٌ ببُعْدٍ غيبيّ. والبُعْد الغيبيّ في الصمت يعني أنه مُوحٍ. فهو شفيع النبوّة ورسول الإلهام بالطبيعة. وفعل «**سمع**» في العربية ما هو إلّا اشتقاقٌ من فعل «**سما**» المعبّر عن «السموّ»، لأن العين في العربية ما هي إلّا همزة في الأصل بدليل أنّ الهمزة في الأبجديّة ليست سوى حرف العين في حجمه المصغّر. والسمع حاسّة تؤدّي دوراً مزدوجاً أحدهما حسّي، والثاني حدسي. والصمت لنشاط هذه الحاسّة المزدوجة **شرطٌ** أوّل بدليل أنّنا لا نستطيع أن نستوعب ما يُقال إذا لم نلزم الصمت. وإذا كان صمتنا مرحلة أولى في سبيل الاستيعاب أو التلقّي، فإنّ السمع هو المرحلة الثانية في سلّم الرحلة الذي لن يكون سوى عبور برزخ الحسّ والحضور في ملكوت الغيوب **بالاستلهام**.

هذا الجدل بين الحسّ والحدس، بين السكوت والسمع، هو ما يؤسّس ميتافيزيقا العزلة!

لا يؤسس ميتافيزيقا العزلة وحسب، ولكنه يهب العزلة **هويّتها الدينيّة**. تلك الهوية الرديفة في كل الثقافات لمفهوم العبادة. أي الممارسة الفعليّة لتجربة الدين، وليس الممارسة الشعيرية. ليس ممارسة الطقس الذي تحوّله الأحلام الدنيوية منفعةً مخجلةً لا تختلف عن الصفقة التجارية التي تفوح من أعطافها رائحة المكيدة!

ولكن المشكلة أن «غولديفيل» لا تملك الحقّ في الانتصار للعزلة دون أن تخون هويّتها كمحفلٍ بشري، دون أن تخذل طبيعتها كقرية برغم أن عزلتها في خاصرة الألب كانت قد حوّلتها بؤرةً منسيّةً جديرة بأن نخلع عليها لقب «الواحة» في صحراء الشمال لانقطاع صلتها بالأسافل عندما كانت منذ ما يزيد على المائة عام محافظةً ذات سيادة إدارية ومكتفية بنفسها عمليّاً وخدميّاً سيّما في فصل الشتاء عندما تفصلها زوابع الثلوج عن العالم في واقعٍ شهد غياب الطرق المعبّدة التي لا تجدي في مقاومة غضب الطبيعة الشمالية حتى في زمن طغيان التقنية كما هو الحال اليوم، فكيف بواقع نهايات القرن التاسع عشر أو بدايات القرن العشرين؟

الإخلاص لناموس المحفل البشري هو ما دفع قديماً

لاختراع ذلك الجهاز المعدني العنيد الذي توّجوا به قبّة العبادة، ولم يقنعوا بهذا ولكنّهم نصّبوه في بنيان ليكون سيفاً مسلّطاً على رقبة الصمت وهو: **الجرس!**

فجرس الساعة في يقينهم ضرورة للتنبيه إلى الوقت، وجرس الكنيسة للدعوة إلى الصلاة: الوقت دعوة إلى **العمل**، والصلاة دعوة عودةٍ إلى **الربّ**.

كان الصحفيّون الذين دأبوا على زيارتي في صومعة الألب هذه بغرض إجراء الحوارات الأدبيّة سواء من داخل سويسرا أو من الأوطان الأوروبّية المجاورة يكتبون عن هذه الأجراس بنبرة شكّ في صحفهم كأن يقولوا إن المكان محيطٌ من صمت، ولا يعكّر صفو هذا الصمت سوى أجراس الساعة أو ناقوس الكنيسة. وكنت أحاول أن أشفّر العبارة بترجمتها إلى لغة الجانب الآخر من البرزخ فأقول إن المقصود هو: «المكان يهيمن عليه **صمت الأموات**، ولا شيء يدلّ فيه على وجود الحياة سوى قرع **أجراس** القرية!». يقولون هذا بنبرة استنكار بالطبع، بنبرة أهل الدنيا الذين لا بدّ أن يناصبوا الزهد وكلّ ما متَّ بصلة لمملكة الطبيعة بأرذل أجناس العداء! عداءٌ فطري وفوق ذلك مجّانيّ. وكنت كصاحب شأن كثيراً ما أسأل نفسي عمّا إذا كانوا على حقّ. وكنت أعجب كيف لم يكتشف محفل الفضول ذاك أن وجود الأجراس لا يوقظ من صمت الأموات ليعيد إلى وجودٍ يظنّونه حياةً، ولكنّه يؤكّد

الصمت، بل رسالته في أن يزيد الصمت عمقاً. فلمن تقرع الأجراس يا ترى؟

لقد تذكّرت رواية همنغواي عن الحرب الأهليّة الإسبانية أثناء تأمّل الوصيّة المبثوثة في صخب الناقوس. قرأت الرواية منذ نصف قرن، ولكنّي لم أكتشف المفتاح إلّا تالياً عندما قرأت قصيدة شاعر القرن السادس عشر «دان» التي يقول في أحد أبياتها إنّ رنّة الجرس هي خطابٌ موجّهٌ إلى كلٍّ منّا، لأنه ليس تذكيراً بالزمن فقط، ولكنّه ترجمة صريحة لبيت الشاعر اللاتيني الأقدم عهداً والقائل: «**تذكّر الموت!**».

هذا يعني أن رسالة الجرس ليست دعوة موجّهة لأحياء يحسبهم البلهاء في عداد الأموات، ولكنّها رسالة موجّهة لأمواتٍ يحسبون أنفسهم على قيد الحياة! إنها وصيّة لا تعني أهل العزلة بقدر ما تعني أهل الغفلة الذين هم (نيامٌ حتّى إذا ماتوا انتبهوا)، لأن سهوَهم عن وجود الموت هو دليلٌ على حضورهم في الموت!

هذا يعني أن العزلة ممارسة لصلاة لأنها تجربة تنفي وجود الجنس الطقسي في الصلاة. تنفي وجود روح الصفقة في الصلاة. وهي لهذا صلاة مطلقة لأنّها التخلّي. والتخلّي ليس قيمة زهديّة وحسب، ولكنّه **حرّية**.

والحريّة هي الوجه الآخر للحقيقة شئنا أم أبينا، لأن مريدها في عزلته **قربان** يمارس الصلاة الحقيقيّة: صلاة

التحديق في الأبدية. والأجراس لا تُقرع لكي تُذكّره بالموت، كما هو الحال مع فريق الجانب الآخر، ولكنّها تُقرع لتذكّره بأن يدلّل في نفسه قلب الطفل، وهو في طريقه للاستزادة من روح القربان، لكي يبقى **حرّاً** عن استحقاق!

البحيرة

1

الحُلُم كان احترافاً، و. . بحيرة!

الاحتراف ترعرع منذ صار امتهان الأدب هاجساً، والركون إلى ضفاف البحيرة تسلّط في القلب وَجْداً منذ قاد التيه عدوس السُّرَى إلى الظمأ! ظمأ يعود بالعهد إلى الطفولة، زمن منازلة الأنعام في رحاب القارّة الصحراوية الكبرى التي كانت إلى وقتٍ قريب حلبةً فيصلاً في التّماسّ بين الطبيعتين الخالدتين في الخصام: القطبية والاستوائية، على ما يروي حكيم التاريخ هيرودوت، مبرهناً على روايته بتعايش الفيَلة مع الدِّببَة في هذا المكان دون أيّ مكان آخر في العالم!

الهوس بالماء، كما يبدو، إنّما يرجع بجذوره إلى تلك التجربة: تجربة الاغتراب عن الماء برفقة الشقيق الأكبر عندما لاح في الأفق الخباء الوحيد، المنتصب في خلاء بلا بداية ولا نهاية، لتُقبل علينا الأمَة بوعاء الماء ما أن أبصرتنا عن بُعْد

في هجير أحد أكثر أيام الصيف قيظاً في أكثر أركان الصحراء الكبرى تصحّراً وافتقاداً للماء وهو «تينغرت» الشمال. وما لا يُنسى في تلك التجربة ليس الظمأ، ليس غياب الماء، ولكنّه حضور الماء: **مشهد الماء في قاع الوعاء!**

سائل اللّالون، واللّاطعم، واللّارائحة يسكن الوعاء مسربلاً بالغموض، بالإغواء. لم أرَ في الوعاء يومها ماءً. لم أرَ في الماء ماءً. ولكنّي رأيت طلسماً. رأيت سورةً مجهولةً لم أعرفها يوماً. رأيتُ اكتشافاً. ربّما لأني لم أرَ الماء يومها كما رأيته قبل ذلك اليوم. لم أرَه بالعين، لأنه كان هو العين. لم أرنُ له، ولكنه هو الذي كان يرنو لي. وحتى عندما لامسته بشفتيَّ المتيبّستَين لأستودعه جوفي أحسست أنه هو الذي يتجرّعني ليستودعني جوفه!

أحسسته في هجعته في قاع الوعاء بحيرةً عميقةً تتكتّم على سرٍّ جسيم. سرٌّ سكنني حُلُماً برغم أن العبارة أعجزتني للتعبير عن حقيقته، ليتحوّل مع الزمن هاجساً رافقني إلى اليوم، أو.. إلى اليوم الذي قرّرتُ فيه أن أمتهن الأدب. امتهنت الأدب، ولكن **احتراف** الأدب ظلّ حُلماً. ولا أعرف لماذا اقترن احتراف الأدب بمجاورة الماء، بالمقام على ضفاف البحيرة؛ كأنّ الإحتراف رهين الحضور بجوار بحيرة، كأنّ الاحتراف لا يكتمل كاحترافٍ ما لم يتوّج بوجود بحيرة!

البحيرة!

الآن فقط أستطيع أن أعترف بأن الحلم بمجاراة البحيرة لم يكن سوى ترجمةٍ ماكرة لطلسم الماء الراقد في قاع الوعاء يوم الوجد في تجربة الظمأ. يوم وقع بصري على بحيرة «تون» (المسترخية تحت أقدام «نيزّن» كمعبدٍ حطّته الطبيعة على غمرها الكسول حارساً) فقط أدركت أن البقعة الغامضة النائمة في حضن الإناء، المنقذ من الظمأ، ما هي إلّا الحجم المصغّر لبحيرة «تون» في الحجم المكبّر: تلك كانت بحيرة صغرى في صحراء كبرى، وهذه بحيرة كبرى في أرضٍ صُغرى. والأحجية هي جنس من استعارة كما في الرؤيا. وها هو الحلم ذي الألف جناح يطوّح بي بعد عشرات السنين إلى ضفاف البحيرة مسكوناً باحترافٍ مجلّلٍ بروح الميلاد الثاني!

2

البحيرة تركن إلى سكينة غيبيّة.

البحيرة في هجعتها تتحلّى بنزعةٍ زُهدية.

البحيرة في عُزلتها كلّها عين.

البحيرة عينٌ لا تنام لأنها تتأمّل ما لا يُرَى عملاً بوصيّة القدّيس.

تتأمّل ما لا يُرَى ترجمةً للهفتها إلى الأبديّة.

ولذلك تبدو لامبالية بالظلال الدنيوية، فتتعشّق السماء بعين الفضول التي لا تنام.

فوقها تدوّم الصقور التي تترصّد في أعماقها كنوزاً خفيّة.

الصقور تترصّد في باطنها كنوزاً أبديّة؛ لأن..

لأن أيّ بصرٍ يستطيع أن يُجاري الصقور في رؤية ما استخفى سيّما إذا كان ما تُخفيه البحيرة هو الكنوز الأبديّة؟

هذه الكنوز التي أخفقتُ يوماً في استنطاقها، كما أخفق مَنْ سبقني في عشق المياه في استنطاق كنوزها المخفيّة!

وها هي الصقور تفشي لي سرّها يوم اطمأنّتْ إليّ عندما جاورتها في عروشها المشيّعة بقرون «غولديفيل» الذهبية!

الصقور أنبأتني يوماً فقالت إن أمم الصحراء لم تُخطئ عندما تغنّتْ في أساطيرها عن وجود الكنوز المخفيّة في الآبار، وأخرى تنام بعيداً في عيون الواحات. كما لم تُخطئ أمم الشمال أيضاً عندما ترنّمت في أغاني الشتاء باللحون التي تتحدّث عن الذهب النائم في قيعان الأنهار، وعن الكنوز القابعة بعيداً، بعيداً، في قلوب البحيرات.

الصقور في الملحمة كانت شاهد العيان الذي تنازل فقال لي إن الأوان قد حان كي أعلم أخيراً أن سرّ المياه لا يقبع في المياه، ولكنّه **المياه!** والكنوز التي تتكتّم عليها البحيرة لا وجود لها في البحيرة، ولكنّها هي **البحيرة**. والذهب الذي تلهج به ألسنة الأجيال لا وجود له في قيعان الأنهار، ولكنّه

يسكن **قلب** الأجيال. لأن ما جدوى أن تتحوّل جبال الألب نفسها ذهباً إبريزاً إذا غابت من الألب المياه؟ أوَليس غياب الماء من قمم الألب إيذانٌ بزوال البحيرة من أحاضيض الألب؟ وإذا تبخّرَت البحيرة من حضيض الألب، أليس ذلك إيذانٌ باختفاء الإنسان من مسرح الألب؟ وإذا اختفى الإنسان من رحاب الألب ألن يكون ذلك زوالاً للألب؟

ألم يكن الإنسان منذ الأزل هو **المقياس** لكلّ الأشياء؟!

البحيرة، إذاً، **روح** المكان. وإذا غابت روح المكان عن المكان، زال المكان!

3

روحٌ تجسّدَت ـ ماءٌ.

ماءٌ تبدّد ـ روحٌ.

بحيرة الشُّهداء

1

كلّنا مع الملكيّة في خِصام.

بل الكلّ مع الملكيّة في خِصام حتّى أولئك الذين لا غاية لهم في الدنيا غير أن **يمتلكوا**، فكيف بأهل الروح الذين يمتلكون البديل، يمتلكون الحُلُمَ بديلاً؟

حتّى «نيتشه» الذي رأى السعادة في غياب الملكية يعترف مرّة بأنّه إذا قرّر أن يمتلك فلن يمتلك سوى بيت يبتنيه عند أعتاب معشوقه البحر وحده (أو وليدته البحيرة) يستطيع أن يجبرنا على التنازل عن قناعاتنا فنتخلّى عن ديننا الترحال لنقبل الركون إلى الأرض بجوار البحر، كأنّنا نزكّي وصيّة «هولدرلين» القائلة: ((عسيرٌ أن يهجر المكان،

ذلك الإنسان الذي أقام إلى جوار النبع))!

ولمّا كانت هوية الشعراء الأولى هي **العبور** (أعني الهوية الطبيعية)، فلا عجب أن يكون حلم الشعراء في رحلتهم الأبدية: **السكون!**

ليس السكون في أي مكان، أو كيفما اتفق، ولكن السكون من جنسٍ ذي خصوصيّة، وعلى نحوٍ ذي خصوصيّة. إنّه سكونٌ طقسي. سكون كالصلاة لأنّه يشترط حضور المياه. يستوجب حضور البحر كما في حال «نيتشه»، أو حضور النهر كما في حال «هولدرلين»، أو حضور الكنز الأكثر رومانسيّةً من الخيارين السالفين وهو: حضور **البحيرة**، كما في حال «هنري كلايست»!

البحيرة قاسم مشترك أعظم لكلا القطبين، لكلا المعبودين (البحر والنهر)، لأنها بينهما وسيط؛ البحيرة **رسول** عجب بين الأعجوبتين! فهي **حميم** بحر لأنها صورة هذا الخصمّ الملقّب بحراً في حجمه المصغّر، وهي أيضاً في العلاقة مع النهر **أمٌّ** !

البحيرة لا تكتفي بامتلاك هذا الامتياز، ولكنها تضيف للخصلتين موهبة أخرى هي: **السكون!**

أوَليستْ غاية كل نشاط هو **السكون**؟

أوَليستْ غاية مريد الرحيل، الحامل لصليب الحرية أبداً، هي الركون؟

أوَليستْ سيرتنا كلّها استعارةً شعريّة لا تخلو من فتنة عبّر

عنها ولَعَنا الغيبيّ بالأسفار كي تترجم ميلاداً نهايته ممات، وحضورٌ غايته زوال؟

بلى!

الحنين إلى مجاورة البحيرة ما هو إلّا الترجمة الأمينة والعميقة لزيارة «بيت النوح» الذي فضّله حكيم الجامعة على زيارة «بيت الفرح»؟

2

البحيرة، إذاً، تسكن قلب كلّ منّا.

البحيرة، إذاً لا تسكن البحيرة، ولكنّها تسكننا.

ولذلك حنيننا إلى مجاورة البحيرة هو حنين إلى **البُعد المفقود** في كلّ منّا.

البحيرة حنينٌ إلى **الفردوس المفقود** الذي يتغلغل في قلب كل مريد، يتغلغل في قلب كل مريد **حقيقة!**

3

إلى هذه البحيرة، بحيرة «تون» التي عرفتها في صحرائي الكبرى منذ عشرات الأعوام، قادني الحلم أخيراً.

الحلم وحده كان لي في الرحلة نحو ضفاف بحيرة «تون» دليلاً.

لقد أيقنت منذ ذلك اليوم الذي حللتُ فيه ضيفاً إلى جوار بحيرة «تون» أن الحلم في دنيانا ليس أقوى دليل وحسب، وليس **نبيّ وجودٍ** وحسب، ولكنّه **ألوهة!**

الحلم ألوهة لا تخذلنا أبداً!

4

البحيرة (بحيرة «تون») تتنفّس شعراً.

تتنفّس شعر الطبيعة.

تتنفّس شعر أهل الطبيعة.

تتنفّس كلمة ما وراء الطبيعة في جمال طبيعة المكان.

تتنفّس غيوباً ممهورةً بكائنات المكان.

تتنفّس وصيّة نبلٍ منطوقةٍ بلسان المكان.

تتنفّس سِيَرَ عشّاقٍ حلّوا يوماً مثلي أضيافاً في المكان.

كلُّ ركنٍ في مملكة هذه البحيرة يتلو بيان الانسجام بين الإنسان ورموز المكان. كل شيء في ملحمة البحيرة يتغنّى بالآية التي تقلب حضور البحيرة في مملكة الطبيعة إلى حضورٍ في **ملكوت** الربّ!

5

سيرة الشعراء الذين أحبّوا البحيرة فبادلتهم هذه المعشوقة حبّاً بحبّ ملحمة أخرى.

يروق البحيرة أن تستعيد ذكراهم فتروي سِيَرَهم كلّما عصف بها الحنين.

تروي سِيَرَهم كلّما عنّ لها أن تتسلّى في عزلتها.

تستعيد سيرة «هنري كلايست» الذي جاورها بنزيف الروح، ودفن فيها قلبه، لأنه لم يوجّه فوهة المسدّس ليفجّر رأسه إلّا يوم أعجزه الفوز بالسكينة فرأى أن يستعير سكينته من سكونها؛ ولم تجد حيلة لمكافأته على القربان سوى احتضان مأوى الشهيد لتصنع له من مياهها، من مياهٍ هي روحها، حصناً لقّبه أهل المكان باسم «جزيرة كلايست».

6

أمّا «يوهانّس برامس» فحكايةٌ أخرى. أغنية أخرى. **سيمفونية** أخرى لم يكتبها المريد حرفاً، لم يدوّنها نوتةً موسيقية، لأن الحبّ الحقيقي هو ما يستحيل التعبير عنه باللغة مثله مثل الحقيقة!

الحبّ الحقيقي هو ما يعجز التعبير عنه حتّى بالموسيقى!

وبرغم ذلك فإن بحيرة «تون» وحدها تكتّمتْ على السرّ الذي لم يفكّ له أحد إلى اليوم طلسماً: السرّ الذي يقول إن روحها مبثوثة عميقاً في موسيقى المايسترو العظيم لأن لحونه الإلهية لم تكن سوى وصايا من صنعها. وهو ما لم يكن ليخفى على كهنة المكان الذين استزرعوا منذ أعوام عند حافّة البحيرة المواجهة للبيت الذي آوى المريد شجرة تخليداً لذكراه كنتُ أمرّ بها كل يوم في الذهاب إلى محطّة القطارات والعودة منها لأتلو في حرمها صلواتي، وأتأمّل جذعها المجلّل بأكاليل الزهور كأنّها ضريح الجندي المجهول!

7

في جانب البحيرة الآخر، في زمنٍ آخر، استودع حالمٌ آخر معشوقته البحيرة أحلامه. أطعم «روبرت فالسر» االبحيرة أحلامه فلم تبخل عليه البحيرة بالزّاد الذي غذّى أحلامه كبرهانٍ على قبول قربانه!

هل أصابت البحيرة العدوى فاحترفتْ بدورها الصفقة؟

كلّا بالطبع. البحيرة هي ما لم يعترف يوماً بالصفقة، لأن رأسمالها ليس المنفعة، ولكنّه: **الجمال!**

إنّه الجمال الذي لم يقُل الحكيم إنه القادر الوحيد على

إنقاذ العالم إلّا لقدرته على تحقيق تلك **الحرية التي تجعل من الموت ميلاداً!**

والدليل؟

الدليل هو ما يُروَى عن الشاعر الذي سقط ميتاً ما أن وقع بصره لأوّل مرّة على بحيرة أخرى منافسة في الجمال هي بحيرة «ليمان»!

ولكن ألم يكن «هنري كلايست» أيضاً صريعَ جمال؟

الشاعر المجهول كان صريع بحيرة «جنيف»، و«هنري كلايست» سقط صريعاً بجمال بحيرة «تون»!

أوَلم يكن منذ الأزل صرعَى الجمال، بناموس الطبيعة الأمّ، **شهداء** مثلهم مثل صرعَى الحقيقة تماماً؟!

المسخ

1

هل سبق لأحدكم أن تخيّل وجود التماسيح في أوروبّا؟ وإذا كان ذلك من قبيل المحال، فكيف بتخيّل وجود تمساح فوق قمم الألب؟

صحيحٌ أن الخيال عنقاء أسطورية لا تعجزها الحيلة في أن تحلّق بألف جناح، ولولا هذا الإعجاز في الخيال لما استطاعت الإنسانية أن تتنصّل من حضيضها لتحلّق في السماوات بألف ألف جناح، وبما يفوق الألف ألف جناح بما لا يُقاس. وهو ما يبرّر البُعْد الغيبي في الخيال، هذا البعد الذي عبّر عنه «ديكارت» عندما قال إن كل ما استطاع الخيال أن يستوعبه فهو إذا لم يحدث في الماضي فهو حادثٌ في الحاضر، وإذا لم يوجد في الحاضر فسوف يوجَد في المستقبل!

الخيال إذاً سفير إرادة في الزمان. قرون استشعار الحلم، وبرهان طبيعتنا الإلهية التي حقّ لنا أن نتباهى بها في مقابل طبيعتنا الأرضيّة المشدودة إلى ذلك الحضيض الأخرس الذي نسمّيه واقعاً.

وبرغم كل هذا يبقى هذا الواقع الذي نراه بليداً متشبّثاً بقفّاز التحدّي!

يبقى الواقع مكابراً لأنه خزنة تلك الأسرار التي تفاجئنا من حينٍ لآخر بما يفوق الخيال. يحدث هذا تكراراً إلى الحدّ الذي شاع فيه اليقين الذي عبّرت عنه الوصيّة القائلة بتفوّق الواقع على الخيال! ولا حاجة لسرد أدلّة رواها الرواة وسيَر ردّدها شهود العيان على وجود وقائع في تاريخ المسيرة الإنسانية فاقت في غرابتها قدرة الخيال على التخييل!

وها هي جبال الألب تطرح في وجهي دليلاً آخر على ثراء واقعٍ وصفته منذ قليل بالبلادة، ويرمي في وجهي بقفّاز التحدّي استهانةً بمريدٍ نصّبتهُ ربّاً وهو: الخيال!

2

ففي خريف أحد الأيام خرجت برفقة مريم إلى ظهر الجبل الأيسر في جولة صباحية. كان الفصل في شهر سبتمبر قد تأهّب للرحيل وأمر بنشر القلوع مستعيناً كعادته بالريح الذي

بدأ موسم حصاده بتجريد الأشجار من كل ورقة صفراء. وكان يصفعنا في سعينا بقطرات مطر على الوجه، ونصيب كآبةٍ في القلب!

هذه هي فتنة الخريف التي تستدرج وتسلب وتصيب بالوجد: جمالٌ في الطبيعة، وبلبلةٌ في الروح. فكيف أفلح الخريف دون الفصول جميعاً أن يجمع بين الأضداد، أو ما نظنّه أضداداً؟ كيف أفلح في عقد القران بين الجمال والحزن، بين البهتان والحقيقة، بين الوجود والعدم؟ هل يوحي الرحيل بالجمال في طبيعة الخريف لأن الموت حرية؟ وهل يلهمنا أوان الرحيل حزناً لأن الغياب في الطبيعة عدم؟

لا شكّ أن ازدواج الأضداد، أو وحدة الأضداد، عمل من إبداع عبقرية الخريف. وهو المتعة التي تشدّنا في هذا الفصل الغيبيّ المجبول بروح الأسطورة من بين كل الفصول!

أوَلم تكن وحدة الأضداد سرّ الوجود؟

3

الخروج من لفيف الأشجار يفضي إلى عراء يشرف على البحيرة من علٍّ، في حين يواجه قمم الألب المقنّعة بالشيب صيف شتاء. بعد مسافة أخرى تنتصب قامات الأشجار من جديد لتمتدّ في غابة. في أرومة هذه الأشجار دبّ ذلك

المسخ في جِرم تمساحٍ وليد، بلونه الكئيب، وجسمه الكريه الذي لا أدري لماذا استثار في بدني قشعريرة. تأمّلناه طويلاً وهو يشقّ طريقه ليتوغّل في الأحراش. فتّشنا في الذاكرة عن الهويّة التي يمكن أن تشهد بحقيقة هذا المخلوق فلم نهتدِ لغير سلالة التماسيح له هويّةً!

ولكن المنطق يرفض وجود تمساح حتّى في أسافل الألب، فكيف بقمم الألب؟

يرفض المنطق، ويستنكر العقل، ولكن الواقع يؤكّد، بل ويتحدّى: المخلوق هو تمساح! تمساح في حجمه المصغّر. تمساحٌ وليد. وحتّى لو كان مسخاً من المسوخ فهو مسخ في صورة تمساح صغير! تمساح ذكّرني بحيوانٍ صحراوي مجبول بهويّة التماسيح أيضاً هو: الضبّ! الضبّ أيضاً تمساح في حجم مصغّر. الضبّ تمساح شذّبت فيه الصحراء الأنياب، وسوّدت فيه شموسها اللون. الضبّ لا يختلف عن التمساح سوى في لونه الفاحم، أو في استدارة الرأس عكس الاستطالة في رأس التمساح. وأسطورة أهل الصحراء تتحدّث عن هويّته الأولى فتقول إنه كان إنساناً كفر بنعمة ربّه فاستحمّ في أكثر السوائل قداسةً في عُرف الصحراويّين وهو الحليب! وكانت نتيجة هذا المنكر أن يُمسخ ضبّاً موسّماً بالسّواد عقاباً له على هذه الخطيئة. فهل يُعقل أن يكون المسخ الذي رأيناه في القمّة سليل ضِباب؟

المنطق أيضاً ينفي بشدّة لسببين: أوّلهما هويّة الضبّ الصحراوية، وثانيهما اللون. لون صغار الضبّ ليس السواد، ولكنه لون الأدم، أي بلون بشرة بني آدم، ولا يستعيرون السواد إلّا بالزمن. ويبدو أن الأسطورة لم تتحدّث عن هويّة هذا الجنس إلّا بسبب هذا الشبه الذي يميّز حسول الضباب في الصغر. وبرغم كل ذلك فإن ما يبرهن على انتماء الضبّ لملل التماسيح هو: الحقد! فبرغم قيام الطبيعة الصحراوية بتشذيب أنياب هذا الوحش، إلّا أن أصله ينكشف إذا عضّ. فهو إذا عضّ بأسنانه على أي عضوٍّ في الإنسان فلا يتركه إلّا إذا مُزّق بدنه تمزيقه! التمزيق بالمعنى الحرفي لا المجازي!

خمّنا طويلاً إلى أن انتهينا أن المسخ ليس ضبّاً لسببٍ بسيط وهو اللون: لون الضبّ الوليد ليس لون الرماد، ولكنّه لون الرمل!

4

المسخ إذاً ليس ضبّاً!

المسخ ليس حيواناً مثيلاً! وهو ما يعني أنه لن يكون سوى التمساح برغم استحالة وجود فصيلة التماسيح على ظهور الألب!

تطلّعنا في طريق العودة إلى شعاف الألب الأسطورية

المكسوّة بالثلوج لتحتضن بهذه الكسوة فصلين اثنين بدل الفصل الواحد.

أعجوبةٌ أن نحيا فصلَين متضادَّين في آنٍ معاً: الشتاء والصيف!

أعجوبةٌ أن نحيا في بُعدَين متنازعَين في آنٍ معاً: السماء والأرض!

سلطة الجمال التي لا تُقهر وحدها تستطيع أن تحقّق هذه الأعجوبة!

ولكن المسخ الكريه أَبَى إلّا أن ينتزعنا من فردوس أحلامنا، ينتزعنا من عروش الجمال ليسقطنا أرضاً! ليرمي بنا في الحفرة التي نعلم أنّنا منها جئنا وإليها ننقلب برغم أننا لا نريد أن نعترف بها وطناً!

بلبَلَتنا الدسيسة الخفيّة وسكنت وجدانَينا هاجساً! تساءلنا طوال الطريق عن حقيقة هذه اللقية الشقيّة، ولكننا لم نجد للغز تفسيراً. عبّرنا عن الهاجس بالندم لأننا لم نسحقها كأيّ دابّة ضارّة. وبلغ بنا الاشمئزاز حدّاً نسينا فيه حضورنا في الألب، وبدأنا نوسوس كلٌّ على طريقته: مريم ذكّرتني بالرجل الذي التقط في الصحراء حيّةً تبدّت تحت أشعّة الشمس سواراً ذهبيّاً فلدغته فمات! وحدّثتُ مريم عن سيرة المرأة التي خرجت مع رجلها وصغيرها للتنزّه في الغابات التي تلتفّ حول حاضرة الوطن فعثرت هناك على رضيعٍ ملفوف في قماط قماش.

رأفت باللقيط الشقيّ فألقمته ثديها لترضعه من حليبها فإذا به يطبق بفكّيه على حلمة الثدي ويأبى أن يخلّصها. هرع الزوج لنجدتها ليكتشف عندما حرّر بدن الرضيع من القماط أنه ثعبان! بلى! ثعبانٌ برأس طفل رضيع!

5

سمّم الشبح الملعون حياتنا بالفعل!

مريم رأته في المنام، أمّا بالنسبة لي فلم يفارق أحلام يقظتي لحظة واحدة! ولا نعرف لماذا نجد أنفسنا نأتي على سيرته بمناسبة وبلا مناسبة. وقد ذهب بنا الخيال في مرحلة تالية إلى هويّة المخلوق كدسيسة شيطانية مثله مثل ذلك الرضيع المقزّز، وتصوّرناه ينمو لينقضّ علينا في أحد الأيام! لقد أصابتنا في الشهور التالية مجرّد ذكراه بالغثيان حتّى أننا لم نذهب إلى جولتنا نحو الميسرة من بيتنا بعد تلك الحادثة سوى مرة واحدة تخيّلنا فيها التمساح يتحيّن الفرصة للسقوط على رؤوسنا من قمم الأشجار بعد أن يكون عوده قد اشتدّ بالطبع! استبدلنا بعدها طريق التجوال من الميسرة إلى الميمنة، نحو الجانب الآخر المشرف على الحقول حيث ينتصب الرأس الذي اتّخذناه تالياً أرجوحة التجلّي التي نروّض فيها أحلامنا.

مضى ما يزيد على العام، ربّما العام والنصف، دون أن

ننسى سيرة اللقية. كنّا نستعيدها من حين لآخر برغم ما في الذكرى من إحساس بالاشمئزاز. كانت تفرض نفسها عفوياً برغم كفاحنا في أن ننسى. هذه الطبيعة الغيبيّة لتلك اللقية القبيحة هي ما يدغدغ فينا الوسوسة بحقيقتها الشرّيرة!

بدأ الشبح يتحوّل رؤيا: قوّة خفيّة تريد بنا شرّاً. وكنّا نردّد بلهجة يمتزج فيها الجدّ بالهزل أن المسخ يعدّ العدّة لغزونا في عقر دارنا حتماً! ولم يكن يخطر ببالنا بالطبع أن تكون هذه المزحة نبوءةً!

6

ففي أحد الأيام خرجت من البيت لزيارة ربّ الملكوت في حرمه لما كان يروقني أن أسمّي حلولي الطقسي في رحاب الطبيعة الأمّ على أن تلتحق بي مريم بعد قضاء الحوائج المنزلية.

قطعتُ بضعة أمتار تفصل بين مدخل البستان والإسفلت عندما فوجئت بعد خطوة فقط بالمسخ يفترش الإسفلت الصاعد إلى أعلى!

هل قلت إنّ المسخ يفترش الإسفلت؟ الواقع أنه لا يفترش الإسفلت، ولكنه كان يتلبّس الإسفلت دامياً، مهروساً، ميّتاً بعد أن استوى في حيوان مجهول الهويّة لن يكون سوى

مشروع ذلك التمساح الغيبيّ الذي سمّم أبداننا طوال ما يقرب من السنتين. ويبدو أن الحدس لم يخذلنا، لأن عجلة المركبة التي سحقته لم تدركه إلّا في اللحظة التي كاد فيها أن يدرك عارضة بستاننا في طريقه إلى بيتنا!

كانت ملامح الجرم مشوّهة كلّها، ولكن الحجم دلّ على نحوٍ يناسب عمر ذاك الوليد إذا بلغ السنتين.

فوق «رأس التجلّي» أدركتني مريم بعد أن انتهت من تدبير حوائجها؛ في عينيها جزعٌ ممزوجٌ بإنكار. وعندما لاحظت أنها ترتعد أيقنتُ أنها، في طريقها إليّ، قد اكتشفت جثّة المسخ!

فهل نكذّب، بعد تلك التجربة، بآلاء الحَدَس؟

القَتَلَة!

ليس على مَنْ استجار بالطبيعة أن يستنكر إذا حلّتْ في بيته كائنات الطبيعة ضيفاً ثقيلاً لسببٍ بسيطٍ وهو أنّه في هذه الحال هو المعتدي. هو الضيف وكائنات الطبيعة هي المستضيف. هو الضيف الثقيل وكائنات الطبيعة هي صاحبة البيت!

كنتُ أُعَزّي نفسي بهذه التعويذة كلّما اقتحمتْ أمّة الطبيعة عليَّ الديار: عناكب، بعوض، نحل، ذباب، فراشات.. إلخ. وفي سنوات إقامتي في «هونيباخ» طرَق بابي في أحد الأيّام ثعلب! ثعلب حقيقي واجهني عندما كنت مستلقياً على الكرسي منهمكاً في قراءة كتاب في الفضاء المؤدّي إلى الحديقة المُلحقة بأحراش تتواصل في الغابة. واجهني بهدوء دون أن تفضح عيناه خوفاً. تبادلنا نظرة طويلة قبل أن أكتشف أنه جريح! كان يشيّع في وجهي ساقه الأمامية الكسيحة كأنه يلوّح في وجهي بشهادة. كأنه يلوّح في وجهي بوثيقة الإدانة الموجّهة للمنكر الذي نتباهى به ونسمّيه **تقنيةً**. الإدانة لمعجزاتنا الكبرى التي نسمّيها حضارةً. الإدانة لعالمٍ يعتنق

عَزلاء، زاهدة، لم تبخل عليهم بنزيف قلبها الذي أطعمهم من جوعٍ، وسقاهم من ظمأٍ، وآمنهم من خوف! ولم تهنأ هذه المِلّةُ الشرّيرة المدعومة من القائمين على أمر الأمّة إلّا بعد أن جرّدت الصحراء من طبيعة الصحراء لتصير بيدهم لا بيد غيرهم صحراءَ لأوّل مرة لا قبلهم!

وهي الفجيعة التي زعزعتني منذ بدأتْ فصولها في سبعينيّات القرن الماضي وتناولتها في رواياتي. ولكن هيهات أن يشفي مجرّد تناولها غليلي لأن هذا التخريب الممنهج الذي تعرّضت له الطبيعة في وطني الأمّ لم تدفع بي إلى عتبة أعلى في سلّم اغترابي فقط، ولكنها أفقدتني الأمل في استعادة الوطن إلى الأبد!

وها هو شبح تلك السلالة الشرّيرة يلاحقني في جبال الألب ليتجلّى لي فجيعةً تنطق بها مقلة الثعلب الشقيّ مع فارقٍ كبيرٍ هو أن علّة بليّة الثعلب حادثٌ عارض برغم أنه لم يكن ليحدث لولا طغيان التقنية، أو بالأصحّ، عبادة التقنية، في حين كانت علّة المصاب في بلادي الأمّ تنفيذاً **لمكيدة إجرامية مدبّرة!**

2

ولكن ها هي بنادق القنص اللعينة تطاردني لا في أحلامي وحسب، ولكنّها تعترض سبيلي في حصونٍ ظننتها أكثر أركان

العدوان ديناً! لحظتها فقط لاحظت في عينيه العسليّتين، القلقتين، الشبيهتين بلونه الأغبر، وميضاً أليماً كان وثيقة إدانة أقوى حُجّةً من وثيقة الساق المعطوبة. وميض الوجع أيقظ في الذاكرة وجَعَاً آخر كان لي في الروح نزيفاً استبسلتُ دوماً في أن أستودعه النسيان، ولكن بلا جدوى: نزيف كائنات البرّية بصحرائي الكبرى التي قطع دابرها جنون الإنسان المسلّح بآخر كلمة في التقنية بدايةً ببنادق القنص ونهايةً بسيّارات التويوتا التي لا تقف في وجهها وعورة أو تعترضها عقَبة.

كان وحوش بلادي يجوبون الصحراء ليُبيدوا الغزلان (رمز الجمال الصحراوي)، والودّان (الحيوان الأسطوري المنقرض)، بلا رادع! وهي الحملة الآثمة ضدّ أممٍ أمثالنا (كما تقول الوصيّة القرآنية)، ولكنّنا خنّا العهد مع ربّ الأمم يوم غدرنا بها لا بسبب الجوع، ولكن إرواءً للظمأ إلى خطيئةٍ اسمها **التسلية**! والمفارقة أن أسلافنا الذين علّمونا في الصحراء أن الأنعام إخوةٌ لنا هُم مَنْ سَنَّ الناموس القاضي بتحريم صيد أكثر من طريدة واحدة في زمن المجاعات التي عرفتها الصحراء دوماً في تاريخها، في حين يعمَد المُترَفون بثروات النفط إلى سحق كل كائنٍ حيّ في الصحراء سواء أكان طيراً يحلّق في الفضاء، أو دابّةً تسعى في الأرض، أو زاحفة تتخبّأ في جحور اليابسة، كأنّ هؤلاء غُزاة يستبيحون أرضاً معادية، لا أبناء وطنٍ تحتضنه صحراء شاسعة، سخيّة،

الدنيا أماناً. فعقب حلولي ضيفاً على قمم «غولديفيل» الذهبية المعلّقة على علوٍّ يبعد عن سطح البحر ألف متر، صادفني رتل تلك الملّة التي ناصبتُها العداء منذ رأيت ما فعلتْه ببيئتي البرّية المغدورة وهي: ملّة **الصيّادين!**

كانوا ثلاثة أشباح حقيقيّة بوجوهٍ كئيبة، بل كريهة لم أرَ لها في وطن الحبّ نظيراً قبل ذلك اليوم. وجوهٌ منكرة تليق بملّة أسوأ من مِلَل الصيّادين: تليق **بالقَتَلة!**

خرجتُ لتأدية طقس الجولة المسائية في الحقول المجاورة برفقة مريم عندما انطلقوا يسعون خلفنا عبر الطريق المؤدّية إلى المرتفع المشرف على الحقول، دون أن أدري من أين جاءوا ولم أعلم بعد إلى أين يتّجهون، ولا ماذا ينوون أن يفعلوا بفوّهات أسلحتهم القبيحة المنتصبة فوق مناكبهم. أبطأتُ الخطو كي أدعهم يعبرون لأني لم أعتد أن أولّي ظهري حتى لعابر سبيلٍ مسالمٍ فكيف أولّيه كَبْكَبَةً تتنكّب بنادقَ حقيقية؟!

تساءلتْ مريم عن هويّة العصابة كأنها قرأت استنكاري فطمأنتها إلى احتمال انتمائهم إلى شركة كانت تستأجر بيتاً ريفيّاً بالجوار يرتاده موظّفوها أحياناً أيام عطلة نهاية الأسبوع للتدرّب على الرماية. وهو بالطبع عملٌ شرّيرٌ آخر كان يثير اشمئزازنا واشمئزاز جيراننا بسبب الضوضاء وزحام السيّارات وإرهاب كائنات البرّ إلى جانب إرهاب البشر وهو ما كان هؤلاء يسبّبونه كلّما حلّوا في خلوتنا. ولكن العصبة انحرفت

يميناً لتصعد قمّة متوّجة بشجرٍ كثيف. بلغتُ مع مريم ربوتنا التي تطلّ على السفوح الجبليّة حيث ترعى الأبقار، ثمّ ينطلق البصر شمالاً حتّى تعترضه سلسلة جبال «يورا» في الأفق، عابراً في الرحلة الجبل الذي تتسلّق خاصرته الحاضرة «بيرن». هناك اعتدنا أن نمارس تلك الصلاة الخالية من روح الصفقة، لأنها ليست ترويضاً لأمانٍ، أو تربيةً لأحلام، ولكنّها: **التجلّي!**

و.. فجأة انطلق عيارٌ ناريّ!

ثمّ تلاه آخر، وآخر. كانت القمّة خلفنا، وأصوات الطلقات الشرّيرة كانت تنتهك سكون الجبال العميق الذي كان امتياز المكان دوماً. ولم نكد نعبّر عن استنكارنا حتّى أقبلت علينا أنثى الأيائل فارّةً من طلقات القنّاصة في الأعلى، أقبلتْ مجابهةً كأنّها تنوي أن تلقي بنفسها بين أيدينا، كأنها تستجير بنا! في مقلتيها فزعٌ رهيب. وعندما لم نفعل شيئاً لحمايتها قفزت إلى الأمام ونزلت الذروة إلى الأسفل. شيّعناها بدعواتنا التي لم نملك سواها: دعواتنا بأن يصيب العماء طارديها الأشقياء! ويبدو أن دعواتنا لم تذهب سُدىً، لأن الطريدة استطاعت أن تعبر الوادي وتُدرك غابة القمّة العُليا. كانوا يلهثون بسبب البدانة، وكانوا متجهّمين بسبب فقدان الطريدة!

أسعدني أن أرى الطريدة المسكينة تنجو، وآلمني أن يحدث هذا في الوطن الذي يعبد الطبيعة، ويؤمن بوحدة

الكائنات، وكان من الطبيعي أن نُصاب بالإحباط إيماناً منّا بوجود خللٍ مّا. كأنّ بنداً من بنود العهد المبرم مع وطن الحبّ والجمال أصابه لسببٍ مّا العطل. حدّثتُ مريم ليلتها عن دهشتي من حدوث هذا في وطنٍ كهذا في زمنٍ يضجّ فيه العالمَ إنكاراً لجُرم الإنسان ضدّ الطبيعة وكائنات الطبيعة، دون أن يفوتني أن أروي لها كيف كنت أقرأ الآيات المستعارة من الأناجيل، ومقولات الحُكماء والقدّيسين التي تحثّ على الرأفة بالطبيعة مثبّتةً على جذوع الأشجار في «هونيباخ»، مكتوبةً بيد مريدي هذه الأمّ الشقيّة.

بعد أيام من ذلك التاريخ كنتُ أقرأ مصادفةً خبراً في إحدى الصحف يتحدّث عن وجود نيّة لاستصدار قانون يقضي بتحويل منطقة «بيرنر أوبرلاند» محميّةً طبيعيةً يحرّم في أراضيها الصيد!

وبالفعل اختفى حَمَلة البنادق من المنطقة منذ ذلك التاريخ!

الرُّسُل

1

مريم قرّرت أن تستضيف الطير في الشرفة!

مريم استجابت لنداء الواجب فقرّرت أن تستدرج أضيافاً من مملكة الطير ببيت هيّأته لهم في الشرفة: استجابت لندائي كما يروقها أن تقول ظنّاً منها أن أغنيتي الأبدية عن حقيقتنا كأصحاب عدوان على كائنات الطبيعة ضربٌ من تلقين. والواقع أن وصيّتي في التلقين التي لم أملّ من التغنّي بها صارت في فمي تميمةً هي وصيّة أخرى مستعارة من مستودع الكتب المقدّسة يقول حرفها: «لا تنسوا استضافة الغرباء، لأن بها استضاف أناسٌ ملائكةً وهو لا يدرون» (إنجيل بولس ـ الرسالة إلى العبرانيّين) وهي وصيّة تحيي فيها الوَجْد الدفين في روح كلّ مخلوق ذي هويّة صحراوية فكانت تعمل على تنفيذها حرفياً على نحوٍ ما لبث أن بلبل هدوئي ككائن لم يستجر

بمملكة الطبيعة إلّا طلباً للعزلة؛ لأنها كانت تستجدي الأضياف استجداءً! ويبدو أنها كانت تبحث عن حُجّة لمنازلة غريمتها العزلة (لأن العزلة هي غريمة كل امرأة بطبيعتها) فنزلت عليها هذه الآية رسول رحمة حتى أنها تتعمّد أن تسمّيهم ملائكة تيمّناً بنعت المتن المقدّس كلّما شاءت أن تستجلبهم إلى البيت لأنها تدري أن الكتب المقدّسة هي نقطة ضعفي! وليتها اكتفت باستدعاء الأضياف ممن عرفنا في أنحاء سويسرا، ولكنها تأبى إلّا أن توزّع دعواتها لكل من عرَفَنا أو عرفناه لا في الوطن الأمّ وحسب، ولكن في كل أوطان الدنيا! وها هي تقرّر اليوم أن تُؤوي في بيتنا أضيافاً من مملكة الطير! ولمّا كنّا نسكن في ريفنا بيتاً سويسرياً تقليدياً، فقد ارتأت أنَّ أنسب مكان لمقام الطير هو الشرفة لأنها محميّة صيف شتاء بسبب وضعها المستجير بإفريزٍ سميكٍ مسقوف في الداخل بالخشب، والمغطّى من الخارج بألواح القرميد ككلّ البيوت الريفية السويسرية ذات المعمار المجنّح تلبيةً لمزاج المناخ في المكان.

في رفرف الشرفة الأيسر تتمدّد عارضة خشبيّة سميكة الحجم. تتمدّد طولاً، في حين تنتصب عارضة أخرى رأسية يجاورها امتداد ساق مدخنة المدفأة المنطلق من الدور الأسفل ليكون عرصة دعمٍ لإسناد السقف. في هذا التقاطع نشأ تجويفٌ مخفيّ بقران العمودين المنتصبين إلى أعلى: هنا

قرّرت مريم أن تنصب أشراكها لتشرك ببيتها أضيافاً هم في عُرفها أيضاً ملائكة. وكان عليها أن تحسن الشّرَك كي تستدرج ليقينها بأن أضيافها ليسوا ككلّ أضياف؛ أضيافها من جنسٍ رفيع. أضيافها من ملّة لا تنقاد إلى الجنّة إلّا مصفّدةً بالسلاسل!

وإذا كان الطير أمنع ضيف لأنه الجنس الحيواني الوحيد الذي لم يعترف بناموس الضيافة إستجابةً لغريزته العبقرية التي رأت بالسليقة أن الضيافة ما هي إلّا طُعم من صنع الإنسان لا بدّ أن ينتهي بمريده ضحيّةً تحت نصل مقصلة أو الجلوس وراء قضبان سجن في أحسن الأحوال، فإن العصافير هي السلالة الأكثر امتناعاً في أمّة الطير، والأكثر حذراً في العلاقة مع جنس الإنس. وبرغم ذلك لم يقع اختيار مريم إلّا على هذه الملّة كي تحلّ في مملكتنا ضيفاً. ويبدو أن الغريزة التي دسّتها الطبيعة في حميمتها المرأة دون الرجل هي التي أوحَت لمريم أن تستخدم أقدم حيلة لاختلاس المخلوق من حريّته وسَوْقه إلى رحاب الجنّة مسلسلاً وهي: **الطّعُوم!**

لقد لاحظتُ غزو العصافير للشرفة بأعداد غير مألوفة، وبأناشيد تترجم احتفاءً لا قلقاً، فتساءلت عن السبب، فما كان من ربّة البيت إلّا أن ابتسمت بمكر (كعادتها عندما تدبّر أمراً تريده لي مفاجأةً) قبل أن تصرّح بأنها استدعت الطير بصنوف الطعوم ليشاركنا المقام! استفسرتُ عن هويّة هذه

الطعوم فقالت إنها أنواع: سميد، وقمحٌ مطحون، وفتات خبز! وكي تقنعني بحسن عملها وتجير نفسها من كلّ اعتراض أضافت: «أليس مذهلاً أن تكتب على أنغام العصافير؟!». قالت ذلك برغم علمها بأنّي لا أكتب عندما أكتب على أيّة أنغام، بل تدري أنّي لا أجلس على كرسي اعترافاتي في الصباح إلّا بعد أن أدسّ في أذنيّ قطعتين مانعتين للصخب أقوى مفعولاً من قطعتَي الطين اللتين استخدمهما «أوليس» في رحلته العدمية إلى فردوس «إيتاكا» خشية أن يستسلم لإغواء ربّات الغناء الحوريّات! فالإلهام ربٌّ آخر لا يُشرك بنفسه حتى أغاني الطّير، لا يشرك بنفسه حتى أشجى اللحون! وأكبر مثال على ذلك السيرة التي يرويها فريد الدين العطّار في «منطق الطير» عن المريد الذي عبد ربّه مائة عام، وفي يومٍ استسلم لغناء طائر، فكانت النتيجة أن تخلّى الربّ عن عشقه!

2

لم أتوقّع أن يأمن الطير الطعوم بهذه السرعة إلى الحدّ الذي يبدأ فيه ببناء العشّ! ولكن حدس مريم المستعار من روح الطبيعة كان أقوى! اكتمل العشّ وتواصلت المعزوفة الموسيقية طوال النهار. ولم يطل مقام جيراننا الجدد بجوارنا حتّى اكتشفتُ فضيلة لحضور تلك القبيلة بيننا: لقد اختفت من

البيت الحشرات سيّما الحشرات الأكثر إزعاجاً كالعناكب والبعوض والذباب، كأنَّ عشيرة العصافير قررت أن تقدّم لنا معروفاً مقابل المعروف فأجارتنا من أكثر كائنات الغابة إزعاجاً لنا!

كان يروقني أن أجلس لأقرأ في الشرفة في الأيام المشمسة لأتسلّى بمرأى هذه الكائنات الوديعة وهي تحمل في مناقيرها أنواع الحشرات لتلج بها المخبأ حيث يتخفّى العشّ لتطعم بهذه الغنائم صغارها!

ولكن هل توقّف إحسان هذه الملّة الفاضلة على تطهير المكان من الحشرات؟

كلّا بالطبع. ففي أحد الأيام أصاب موقد المطبخ خللاً ممّا دعانا لاستبداله بموقد نار كهربائي متنقّل ومؤقّت إلى حين إصلاح موقد الطبخ المثبّت في منظومة المطبخ. وهو ما اضطرّ ربّة البيت أن تستخدم الشرفة للطبخ مؤقّتاً. فماذا كانت النتيجة؟

لا أحد يستطيع أن يتخيّل مدى الاستنكار الذي قوبل به هذا العمل من قِبل أهل الشرفة! لقد أقاموا هناك قيامة احتجاج لم نفهم لها سبباً: كان المستوطنون الجدد يتناوبون بأصوات فزعة كأنهم أصيبوا بمسّ! يتطايرون حولنا أثناء إعداد الطعام بلجاجة مريبة أحيت في قلبي العرق الصحراوي الذي يوحي في مثل هذه المواقف في حال الطير بوجود عدوٍّ مبين في

مكان مّا. وهو لن يكون بالنسبة للطير، كما بالنسبة للإنسان، غير: الحية!

فتّشنا المكان بحثاً عن الحيّة، فتّشنا كل زوايا الشرفة، بل وكل أركان البيت، ولكنّنا لم نعثر على الحيّة. فأين يكمن العدوّ الذي أعلنت العصافير حالة الطوارئ بسببه؟

كنت على يقين بوجود سرّ لإيماني بأن الإنسان يستطيع أن يخطئ، ولكن الطير لا يخطئ، لأن إذا كانت قرون استشعار الإنسان في التنبّؤ بالخطر هي العقل، فإن قرون استشعار الطير هي الغريزة. والغريزة أقوى في هذه الحال من العقل!

وبالفعل لم يخذلني إيماني وإن خذلني في اللعبة العقل.

فبعد أيام من موعد إعلان حال الطوارئ اكتشفت أن العصافير لا تبدأ في قرع نواقيس الخطر إلّا في اللحظة التي يعلو فيها البخار من الموقد اللعين!

السرّ إذاً في البخار!

البخار، بمنطق الطير (الذي هو منطق الطبيعة الأقوى من كل منطق)، قرون استشعار النار! والنار لسان رسالته الحريق! والحريق هو الخطر الذي أراد الطير أن يحذّرنا منه. الحريق هو العدوّ المبين!

والدرس في وصيّة الطير لم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه استعار أبعاداً غيبيّة عندما اكتشفنا جانباً آخر في وضع الشرفة لم يخطر لنا على بال وهو: الخشب!

لقد كانت الشرفة كلها قطعة من خشب. السقف ملفّق من خشب، وكذلك الجدران الجانبية ممّا يضاعف الفرصة لنشوب الحريق بأبسط هفوة!

لقد لقّننا الأضياف مقابل إحساننا درساً حكيماً مبثوثاً في وصيّة مرسلة من أمّنا المشتركة (الطبيعة) تحذّر من الاستهانة بالنار. والفرق بيننا وبين إخوتنا من أمّة الطير هو أننا اغتربنا عن الطبيعة كأمّ فنسينا لغتها، في حين تشبّثت أمّة الطير بتلابيب أمّنا المشتركة فظلّت في معبدها سادناً وللغتها ترجماناً!

الوردة بصيغة المفرد

1

إذا كانت مريم قد لقّنتني درساً في ما يسمّيه قدماء العرب بـ «**القِرَى**» (أي حُسن ضيافة الغرباء) يوم أدخلت إلى بيتنا ملّة العصافير، فإنّها أبَتْ إلّا أن تلقّنني درساً آخر في فلسفة أخرى هي: **العطاء!**

وهو درسٌ عفوي. وأن يكون عفوياً هو ما يهبه ذلك البُعد الغيبي، أو ربّما الوجودي، الذي استهواني في كل فعلٍ إنساني ممهور بختمٍ ديني! فالعطية التي لا تخاطبنا ببيانٍ كهذا هي إهانة وليست عطية. إهانة من النوع الجدير بأن يتلقّى صاحبها منّا صفعة في المقابل بدل أن يتلقّى امتناناً كما يوصي «إمرسون». لماذا؟

لأنه عمل قرين لفعل قبيح ولا أخلاقي وهو: الرشوة! لماذا يستعير هذا البُعد؟ يستعير هذا البُعد لصفته الدنيوية. هل

قلت «الدنيوية»؟ الواقع أن العطيّة في واقعٍ محكوم بالعلاقات الدنيوية موبوء دوماً بروح نفعيّة. أي أنه، على نحوٍ مّا، صفقة. صفقة لا تختلف عن أيّ مبادلة تجارية. وهو ما يهبها صلاحيات استثنائية. صلاحيات ترتقي إلى مستوى السلطة. تعبيرٌ عن هيمنة. تعبير؟ كلّا! إنه شروعٌ في بسط النفوذ، تمهيداً لإحكام قبضة استبداد. أي أن العطية إذا لم تكن وردةً فهي غزوة. غزوة لإقامة نظام طغيان!

ألهذا السبب استنزلت ثقافات الأمم مسوح القداسة على الوردة؟

2

واضح بالطبع أنّ تقديم الوردة على سبيل الإهداء هو تعبيرٌ غايته تبرئة الذمّة. تبرئة الذمّة من رجس النفع. أي أنه تحرير للعطية من هويّتها التجارية، واستعادتها من رحلة اغترابها كنيّة مبيّتة! لأن تجريد العطيّة من دلالتها كسلطةٍ رهينٌ بتجريدها من روح الصفقة!

يجب التنبية بأنّنا لسنا معنيّين بالورود في الحديث عن الوردة، ولكن ما يعنينا هو الوردة تحديداً. الوردة في صيغة المفرد، لا الجمع. لأن للورود في صيغة الجمع هويّة دلالية أخرى تختلف عن هويّة الوردة في صيغة المفرد. الورود باقة

تحمل رسالة أخرى، لأن الباقة مكبّلة بناموس التقليد. الباقة ترسيمٌ طقسي يؤدّي دوراً في محفل سواء أكانت إكليلاً في حفل زفاف، أم باقة في مأتم، سواء أكانت تاجاً يوضع على رأس فارس أحرز في الحرب نصراً، أم تجسيداً لكلمة وداع تُطرح على تابوت فقيد. والعادة المتداولة تميت روح الرمز ما أن تنتهي إلى روتين! ولهذا يتبدّد الجمال في حشد الورود فتبدو عطيّة ميّتة وهي تتمدّد فوق ضريح الميّت!

ولكن الوردة في صيغة المفرد شأنٌ آخر.

3

الوردة ليست وروداً. الوردة ليست باقةً. الوردة بصيغة المفرد اغتراب. وهي لا تخون هويّتها كتوحّد إلّا لهذا السبب. إنها عزلة. بل هي تجسيدٌ للعزلة. والعزلة في مدلولها الأقصى هشاشة. وهي إلى جانب الهشاشة بلا نفع! انحطاط القيمة النفعية في الوردة المقدّمة على سبيل الإهداء يُحيي قيمة غيبيّة. يبعث في الوردة قيمة قدسيّة، لأن الوردة في هذا البُعْد المحزن فقط تكشف عن حقيقتها كحريّة!

ولكن هل الحريّة هي الكلمة النهائية للوردة في صيغة المفرد؟

4

الوردة مستودعٌ لكنوزٍ بحرصها على البقاء في ملكوت المفرد. فهي في هذا الملكوت لا تجاور الألوهة وحسب، ولكنّها تصير دليلنا الوحيد لحرم الألوهة. وعندما يقوم عاشق بتقديم هذه الآية إلى معشوقته فإنه لا يقدّم قلبه فقط تعبيراً عن حبّه، ولكنه يقدّم مع القلب عطيّة أخرى أنفس هي: إيمانه!

وما هو الإيمان إن لم يكن الترجمة الأمينة لمفردة جليلة هي: الألوهة؟

ألاَ يقال أن حضور الألوهة فينا ليس خارجنا، ولكنّه فينا؟

5

البسمة التي شيّعت بها مريم عطيّتها في ذلك اليوم كانت أيضاً ترجمة حرفية لوردة. كانت تجسيداً لوردة. وردة في بُعْدها المفرد. في بُعدها المفقود. في بُعدها الديني. وردة أكثر غيبيّةً تبدو الوردة المبدعة بيد الطبيعة إلى جانبها مجرّد ظلّ، لأنها من إبداع الروح. فإذا كانت الوردة المخلوقة بمشيئة الطبيعة ترجمة لكلمة ألوهة، فماذا نسمّي الوردة المبدعة بلغز الروح الذي لن يكون سوى سلطان الألوهة؟

ألاَ تصير العطيّة في هذا البُعْد أكثر من عطيّة، ولكنها تتحوّل خلاصاً من جنس خاصّ. خلاصاً إذا تحقّق فلن يضيرنا أن نذهب لنموت بسلام؟

آنّا في ضيافة الألب

1

هل تذكرون روح الصحراء ووريثة كاهنة الأجيال «الدّاهية» الملقّبة بـ«آنّا الكوني»؟ من قرأ منكم «ملكوت طفلة الربّ» لن ينسى بطلة هذه الرواية ذات الثمانية عشر شهراً: هذه الأعجوبة التي اصطلح على تسمية مثيلاتها في اللغات الأوروبية بـ "Wunder Kind" (استعارةً من الألمانية) قررت أن تلبّي أخيراً دعواتي ودعوات مريم المكرورة لتنزل ضيفاً في رحاب الألب. حلّت في «غولديفيل» بعد أن سلخت من عمر الزمان التسعة أعوام والنصف بدل العام عند تعرّفكم بها في الرواية؛ كما سلخت من كيان المكان نصيباً سخيّاً أيضاً انطلاقاً من أوطانٍ تستلقي على جنوب بحر ليبيا لتعبر الشمال انطلاقاً من المدينة التي حملت إسم معبودة الأمّة قديماً «تانّس» أو «تانّيت» مروراً بصخرة القدّيسين ووكر القراصنة «مالطا»، وصولاً إلى الشاطئ الآخر الذي تؤدّي له كل الطرق

منذ الأزل «روما»، وعبوراً برّاً عبْر الطريق نفسه الذي أقبل منه سلفها «هانيبال» منذ الألفي والمائتي عام في غزوته لحاضرة الأزمان وأمّ الدنيا تيمّناً بوصيّة «كل الطرق تؤدّي إلى روما»، لأن كاهنتي الصغيرة تريد أن تضيف تعديلاً في الوصيّة يقول: «الطرق إلى كل الأوطان تمرّ عبر روما»!

ترك شقيقي في الدمّ وخلّي في الروح «آله الكوني» صغيرته وديعةً نفيسةً بين يديّ ليمارس صلاته القديمة التي ورثها في الجينات عن أبيه (الترحال) وهو الذي لا يطيق وقع ملابسه على بدنه من فرط هوسه بالحرية، فكيف يطيق عبء الأمكنة على لغزٍ هشّ كالروح؟

بحلول ملهمتي الصغيرة في دياري حلّ العيد في قلبي، لأنه إذا كان دوستويفسكي يعلّم بأن العالم بأسره لا يساوي دمعة طفل، فإن لا وجود في الدنيا لسعادة يمكن أن تقارن بسعادتنا في حضور الـ "Wunder Kind"!

فهي لم تكن لي ولمريم سبب سعادة أثناء زياراتنا للوطن والإقامة في بيتها بالمحاضرة وحسب، ولكن البهجة التي كنّا نحملها معنا في عودتنا إلى رحاب الألب كانت عزاءً في عزلتنا، فكنّا نستعيدها كلّما اشتدّت وطأة الشتاء السويسري، وهيمنت الثلوج على العالم لتحيل طبيعة الشمال كلّها إلى متاهة مقنّعة بالكفن فلا عاصم بعدها من قدرٍ هو شبح الفصول: الكآبة!

ولكن قدر العيد لا يكتمل. فها هي متعة حضور الـ "Wunder Kind" في الديار تتبلبل لتزامن الزيارة مع أشرس حرب قُدِّرَ لكاتب أن يخوضها في تجربته الدنيوية على الإطلاق وهي الحرب مع المطابع في سبيل تخليص كلّ مؤلّف جديد من براثن أرباب هذه الحرفة كأنّهم أبالسة المحافل السريّة! إنها الحرب التي تستغرق الوقت وتستنزف من الجهد قدْراً يفوق ما يستغرقه تأليف الكتاب من الوقت، ونصيباً يفوق ما يستنزفه التأليف من جهد بما لا يُقاس. وكنت أشكو طوال تجربة التأليف التي تزيد على الأربعة عقود من عناد هذه الملّة وجهلها بأبسط قواعد عملها، وسوف لن أملّ من الشكوى، كما لن أغفر ما سرقه أرباب هذه الصنعة من وقت وعرق وطاقة ونزيف دم حتّى أنّي لم أكن لأدرك علّة هذا التحدّي العبثي، والاستهتار بالنصوص الشقيّة التي قُدّر لها أن تقع بين أيديهم لتخضع لانتقامهم الجنونيّ والمجّاني كأنّهم رُسُل شرّ وليسوا رُسُل حقيقة، لو لم أكتشف أخيراً أنّهم: وسطاء!

أوَلم يكن الوسيط منذ الأزل خصماً للطرفين؟ أوَلم يكن لهذا السبب ورماً بطبيعته في كل علاقة؟ أوَلم يكن في كلّ صفقةٍ ربّ مكيدة؟

وها هم يجدون فرصتهم ليبطشوا بي في يوم عيدي ذاك. كانوا سيبطشون بي حتى في عراك الكتاب الواحد، فكيف إذا

كانت صنوف التنكيل المقرّرة تنتظر ثلاثة كتب هذه المرّة وليس كتاباً واحداً؟

هذا الوضع استدعى تدخّل مريم لمساعدتي في قيادة الحرب التقليدية على جبهة المحاور الثلاثة، ولكنّه كان على حساب أداء الواجب نحو ضيفتنا التي انتظرناها طويلاً. فـ«آنّا» برغم هويّتها كـ "Wunder Kind" (أعجوبة) إلّا أنها لا تستطيع أن تتنكّر لهويّتها كطفل! أي أنها لم تأتِ لزيارة الألب لتحترف على طريقتنا العزلة، ولكنها جاءت لتحيا الطفولة، أي: اللعب! فطقس كالتجوال في الحقول لم يكن ليقنعها، لأنه تعبٌ وليس بلعب!

والجلوس معنا أمام شاشات أدوات التقنية لتدقيق المتون الأدبية ليس في عُرفها تسلية، ولكنه الملل مجسّداً!

كنت أرثي لحالها وهي تطارد مريم من ركنٍ لركن، من دارٍ لدار، طلباً للسلوى، حتّى إذا يئست من الفوز بها استنجدت بي؛ وكم كنت أشعر بالأسى لأنني لا أستطيع أن أُنجدها بسبب غيابي في خطط حربي المقدّسة ضدّ مكائد أبالسة المحفل الخفيّ!

وكان أكثر ما يفزعني أن أخفق في الاحتفاء بعيد حلولها فأخيّب ظنّها بي هي التي أقبلت علينا بروح أهل إيمان يحجّون إلى مكّة بعد انتظارٍ طويل!

لقد خطّطنا للانتهاء من حملات تصويب الكتب قبل

وصولها بزمن، ولكن دسيسة أصحاب الطباعة خذلتنا بسبب تأخيرٍ كان علينا أن ندفع ثمنه شهراً كاملاً مستقطعاً من الوقت المخصّص سلفاً لطفلة الملكوت، فازداد إيماني بصواب «قانون ميرفي» الذي يقول: «كل شيء على الأرض يتحالف ليغدر بالإنسان: السكّين التي تسقط تصيب رجلك، والأسنان لا تؤلم إلّا في اليوم السابق على بداية العطلة الأسبوعية، والموظّف النجيب لا ينال الترقية أبداً!».

ولكن الفوز بـ«الفوندر كيند» كان يُخفي لنا مفاجأة تليق بطفلة الملكوت!

2

لم نكن لنتخبّط في دنيانا أكثر ممّا ينبغي لو أحسنّا القراءة في كتاب الوجود: فالأشياء تستوقفنا، ولكننا نأبى إلّا ان نتجاهلها. تستوقفنا لتخاطبنا بلغتها، فلا نفهم، لأننا نرفض التنازل عن كبريائنا لنتحدّث لغتها ظنّاً منّا أنّنا إذا آمنّا بأننا مقياس هذا الوجود (كما أوهمنا أنفسنا) فإنّ هذا يعطينا الحقّ في استصغار الكائنات وننسى أنها جزءٌ منّا ونحن جزءٌ منها. أمّا العقل الذي نتباهى به فهو الدليل الذي يجب أن يهدينا إلى هذه الوحدة في الهويّة لا أن ينقلب سبباً للتّيه عن الهويّة. وتجاهلنا لصوت الكائنات قد تغتفره طبيعة الأشياء قليلاً،

ولكن طبيعة الطبيعة لا بدّ أن تبرز لنا كشف حسابه في حال تمادى بنا غرورنا فاستسلمنا للوصايا القائلة بأن الحياة بسيطة، وما علينا لنحيا سعداء إلّا أن ننزلق على سطحها انزلاقاً بدل أن نلقي على صدرها بأثقالنا. وهو سوء فهم لمبدأ البساطة الذي لن يعني سطحيّة بقدر ما يعني فطرةً: الفطرة بطبيعتها سجيّة غيبيّة بلا قاع، ولهذا كانت منذ الأزل بُعْداً وجوديّاً مفقوداً مثلها مثل الألوهة.

سوء فهم البساطة هذا هو ما أدّى إلى اغتراب الحقيقة في حياتنا الدنيوية، وكان على الرُّسُل أمثال الـ "Wunder Kind" أن يصحّحوا الأمر ويلقّنونا الدرس! وها هي ضيفتي التي انتظرتها أعواماً تتولّى الأمر لتوقظني من سباتي الوجودي الثقيل يوم عرفتْ كيف تنتشل مريم من دنيا العقل الآلي لترافقها في نزهة خاطفة إلى المدينة النائمة على ضفاف البحيرة أسفل الجبل لتعود من هناك بالتعويذة التي ستوقظني من سباتي وتحرّرني من أوهامي مجسّدةً في دميةٍ لمخلوقٍ يبدو وديعاً، بل ويبدو رمزاً للوداعة، ولكنه في الناموس الذي ورثته عن أسلافي مسخ مسوخٍ ولعنة لعناتٍ ظللتُ أتطيّر من سحنته الكريهة طوال حياتي، وكان يبرّر هذه الرؤيا فيفسد يومي ويفتن بيني وبين خلّاني كلّما وقع بصري عليه شبحاً في صورة، فكيف إذا اقتحم حرم بيتي مجسّداً في دمية؟

تساءلت طويلاً عن سرّ رؤية أسلافي لحيوان الأرنب كرمز

للنحس؛ وكان عليّ أن أنتظر حتى أهتدي إلى «السير جيمس فريزر» الذي أخبرني في غصنه الذهبي عن الأسطورة التي تقول إن الخالق بعث بها رسولاً لتبشّر الإنسان بالخلود، ولكنّها حرّفت الوصيّة بدافع الحسد لتنبئ الإنسان بالضدّ: بالموت! منذ ذلك التاريخ صار الشقيّ فانياً، لأن الكلم في معتقدات أمم التكوين يمتلك سلطة الفعل، ومنطوق الوصيّة كان حكماً نافذاً بالإعدام! وقد استخدم «كنوت هامسون» هذه الرؤيا في رائعته «عصارة الأرض» حيث يصير الحيوان سبباً لوقوع البليّة.

أمّا «بلوتارك» فينصّبها قريناً بحجمٍ مصغّر لحيوان كان معبود العبرانيين وشيطاناً في ديانة قدماء المصريين وهو: الحمار!

التّهم الموجّهة لفنطيسة الشؤم إذاً تصلح أدلّة للحكم على المخلوق الذي حكم علينا يوماً بالإعدام. والوداعة في الجِرم ما هي إلّا حيلة البدن المسكون بالشرّ، لأن للشيطان وجهٌ جميل، كما يعلّمنا «شكسبير»!

الحيوان الذي نراه مسخاً إذاً رسول بليّة! ولكن أيّة بليّة؟ أيُعقل أن تريد بي طفلة الملكوت التي تتلمذتُ على يديها منذ أعوامها الأولى شرّاً؟ أيُعقل أن تكافئ تعلّقي بها بليّةً مدسوسةً في جِرم دميةٍ تجسّد هذا الحيوان الغيبيّ؟

لقد نازعتها بالطبع. نازعتها بحكم العادة. نازعتها جهلاً

منّي بلغة المجهول التي تخاطبنا بلسان الأشياء. نازعتها سيّما بعد أن بدأت البليّة تلوح في الأفق ناسياً تأمّل البليّة: ناسياً أن البليّة رسالة. رسالة مشفّرة. رسالة غيبيّة تستلزم أعسر أجناس الاستجواب. اختليت بنفسي لأتأمّل ما حدث فوجدته يخفي وصيّة. يخفي درساً. يخفي الحقيقة. الحقيقة التي لا نستيقظ من سباتنا لنراها ماثلة أمامنا إلا بالبليّة. إنه الشرّ، ولكنه الشرّ الذي يحرّرنا من وهم. إنه القصاص الذي يأتي لنا بالخلاص. ومرارته ثمنٌ مدفوع بالخيار الأنبل: الحريّة!

إنّها أمثولة «فاوست» المحمولة بحجّة «ميفستوفلس»: «أنا تلك القوّة التي تفعل شرّاً لأنها تدري أنه سينقلب خيراً، ولكنها لا تفعل الخير أبداً لئلّا ينقلب شرّاً»، لأن رسالة الجدل أن يعيد صياغة الأشياء. إنه مثل «زيوس» في أمثولة «إيزوب» الذي لا شأن له إلّا أن يرفع الأسفل إلى أعلى، وينزل بالأعلى إلى أسفل!

طفلة الملكوت التي أسأتُ بها الظنّ أقبلت من أبعد قارّة لتنقذني بدمية كانت في العُرف شؤماً، ولكنه الشؤم الذي يبدّد الأكذوبة، لأنه يكشف الحقيقة!

لأن البليّة، بحضور الحقيقة: سعادة!

والسعادة، بغياب الحقيقة: بليّة!

بيتُ الحنين

تقول:

ـ هل سمعت ما قال؟

فأجيب:

ـ كلّا، لم أسمع ما قال!

السائلة مريم، والمعني بالقول هو البيت. إنها بهذا تترجم عادتها في استنطاق الكائنات، وبثّ الروح في كلّ الموجودات فيروقها أن تنصّب نفسها ترجماناً لتنقل لي ما غاب عنّي من رطانات كائنات الدنيا، وما خفي من مجهول لغاتها السرّية. وإذا كانت مريم قد دأبت على التجسّس على كل شيء حولنا فإنَّ للبيت في حياتها حضوراً استثنائياً حتّى أنها أطلقت عليه اسم «بيت الحنين» تيمّناً بروايتي: «بيتٌ في الدنيا، وبيتٌ في الحنين». فالكتب في ناموسها تتكلّم، والشجيرات النادرة المستجلبة من اليابان، أو من حوض المتوسّط التي ترعاها بحميميّة كأنّها صغارها، تروي سِيَراً أيضاً.

ولكن البيت يمتلك في القائمة حضوراً وجوديّاً فعليّاً. إنه في عُرفها ليس بيتاً، ولكنه الوطن الذي نزلنا لنستجير به ليعزّينا في غربتنا القاسية في ممالك الألب. هذا الألب المعمّم بأكفان الجليد في كل الفصول، فإذا حلّ الشتاء أغدق على كل الجوار نصيباً سخيّاً من أكفانه الكئيبة ليحتلّ «بيت الحنين» رأس القائمة في جملة ضحاياه. يغرق في كفن الفصول، ولكنه لا يتنكّر لهويّة المعبد: معبدٌ من طراز معابد عالم ما قبل التاريخ، أو كاتدرائيات القرون الوسطى بسقوفها العالية، وأعمدتها الخشبيّة المستقطعة من غابات الشمال الماردة؛ فلا يستثير الانطباع الحنين وحسب، ولكنه يربّي في النفوس الرومانسية الحلم، ويستدعي في مريدي الأشعار هوساً مثيلاً لجنون دراويش الطرق الصوفيّة عندما تبلغ حمّى الوجد الذروة فتنفرج بوّابة المجهول عن الرؤيا!

إنه إحساسٌ أعمق من الإحساس بحميميّة العشّ التي يتحدّث عنها «باشلار» عن الأمكنة بتلك الموهبة التي تفوق عقل الفيلسوف سلطاناً، وهي: روح الشاعر، أو بالأحرى، روح الرئيّ.

فالبيت الذي يُحيي الإحساس بالحضور في محراب المعبد يستعير بُعْداً قدسيّاً يصيّر كل فعل في أرجائه طقساً، وكل تجربة في أرجائه تصبح ممارسة لصلاة. ويبدو أن سيرة كهذه هي ما يؤدّي إلى الارتباط بالأمكنة. سيّما البيوت. ارتباط يكتسب

مع الزمن أبعاداً غيبيّة بسبب الممارسة الطقسية القرينة للصلوات. أي أن البيت لا يكتفي بطبيعته كعشٍّ حميم هو واحة الجسد، ولكنه ينقلب فردوساً للروح بصفته كمعبد: إنه رحم العالم، وطن السكينة، لأنه منذ الآن بلاط سلام. والتعلّق به هو تشبّث بتلابيب السكن النهائيّ. تشبّث بالقبر. ولهذا تطلق اللغة الألمانية اسم "Friedenhof" على المقبرة التي تعني في الترجمة: «بلاط السلام»! ولهذا السبب أيضاً يقوم داهية الواحة في رواية «بيتٌ في الدنيا، وبيتٌ في الحنين» بتشييد قبر لمريد البيت بدل أن يبتني له على الجبل بيت الدنيا كما توهّم المريد، لأنه قرأ في الرجل الأعماق التي تتوق دوماً إلى السكن الأخير، إلى السكن الأبدي، بدل التغنّي بالسكن الدنيوي، السكن الوقتيّ. والدليل؟ الدليل تقدّمه لنا أعظم حضارة روحيّة في العالم وهي حضارة مصر القديمة من خلال مفهومها العبقري عن الخلود. فالبيت الحقيقي في مملكة الروح تلك ليس بيت الدنيا، ليس بيت الفناء، ولكنه البيت الوحيد الذي يعوّل عليه، وهو: بيت الأبد! ولهذا السبب اندثرت بيوت مصر القديمة اندثار الهباء، وبقيت بيوت الأبدية قائمة في جوف الأرض إلى يومنا هذا.

فبماذا أخبرتني مريم عن برطمة «بيت الحنين» في مساء عودتنا من رحلة طويلة في ذلك اليوم؟ تكلّمت بروح كاهنات معبد دلفى فقالت إن البيت كلّمها فقال إنه سعيدٌ بعودتنا!

هذا ما قاله البيت في يوم العودة، ولكن ماذا قال في يوم الرحيل عندما حان ميعاد الوداع؟

كانت مريم تذرف الدموع عندما قالت إن بيت الحنين خنقته العبرة لأول مرّة، وعجز عن الكلم؛ لأنه انشغل بكفكفة الدموع التي سفحها حزناً على الفراق.

قلت لها إن سويسرا وطننا الحقيقي الذي لم نجده في وطننا، والألب هي مسقط رأسنا البديل لمسقط رأسنا، وسوف يغفر لنا الوطن فرارنا من جليده الذي لم يكن يوماً فراراً من رحابه، وسوف نعود يوماً إلى دياره. ولكن هيهات أن تقنع ترنيمتي مخلوقاً رومانسيّاً متيّماً بالتماهي مع الكائنات كمريم! فالمكان المهجور في عُرفها هو أطلال حتّى لو كان فردوس الفراديس. والأمكنة تتنكّر لنا حال هجرنا لها فتستدرج أهل الخفاء ليسكنوها نكايةً بنا جزاء خيانتنا للعهد. وهي قناعة استعارتها من ديانة أمم الصحراء التي تجتنب العودة إلى الدِّمَن، ولا تلتفت أبداً إلى المكان الذي استبدلته بالمكان عملاً بوصايا الناموس الضائع الذي جرّبت أنها لم تخن وصيّةً من وصاياه يوماً دون أن تجني اللعنة قصاصاً!

الفهرس

القسم الأوّل:
معزوفة الأوتار المزمومة

القسم الثاني:
الفردوس السويسري

مؤلّفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج 6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج 3، (موسوعة البيان) ج 7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

68 ـ جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م.

69 ـ فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م.

70 ـ ناقةُ اللّه (رواية) 2015م.

71 ـ معزوفة الأوتار المزمومة 2015م.

مؤلّفات إبراهيم الكوني النظرية

72 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

73 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

74 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

75 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م.

76 ـ ثوبٌ لم يُدنَّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م.

77 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م.

78 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثانٍ 2013م.

79 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثالث 2014م.

إبراهيم الكوني

معزوفة الأوتار المزمومة

كان وحوش بلادي يجوبون الصحراء ليُبيدوا الغزلان (رمز الجمال الصحراوي)، والودّان (الحيوان الأسطوري المنقرض)، بلا رادع! وهي الحملة الآثمة ضدّ أممٍ أمثالنا (كما تقول الوصيّة القرآنية)، ولكنّنا خنّا العهد مع ربّ الأممِ يوم غدرنا بها لا بسبب الجوع، ولكن إرواءً للظمأ إلى خطيئةٍ اسمها التسلية! والمفارقة أن أسلافنا الذين علّمونا في الصحراء أن الأنعام إخوةٌ لنا هُم مَنْ سَنَّ الناموس القاضي بتحريم صيد أكثر من طريدة واحدة في زمن المجاعات التي عرفتها الصحراء دوماً في تاريخها، في حين يعمَد المُترَفون بثروات النفط إلى سحق كل كائنٍ حيّ في الصحراء سواء أكان طيراً يحلّق في الفضاء، أو دابّةً تسعى في الأرض، أو زاحفة تتخبّأ في جحور اليابسة، كأنّ هؤلاء غُزاة يستبيحون أرضاً معادية، لا أبناء وطنٍ تحتضنه صحراء شاسعة، سخيّة، عَزلاء، زاهدة، لم تبخل عليهم بنزيف قلبها الذي أطعمهم من جوعٍ، وسقاهم من ظمأٍ، وآمنهم من خوف! ولم تهنأ هذه الملّة الشرّيرة المدعومة من القائمين على أمر الأمّة إلاّ بعد أن جرّدت الصحراء من طبيعة الصحراء لتصير بيدهم لا بيد غيرهم صحراءَ لأوّل مرة لا قبلهم!


ISBN: 978-614-8020-04-9
9 786148 020049